مجلة جامعة الملك سعود، م٧، الآداب (٢)، ص ص ٣٢٩ - ٣٧٧ (١٤١٥هـ /١٩٩٥م).

# الاتجاه النقدي في روايات الزبير بن بكار (١٧٢ - ٢٥٦هـ)

**عبدالله بن سليمان الجربوع**

*أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،*
*جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية*

(ورد بتاريخ ١٤١٤/٧/١٥هـ، وقُبِلَ للنشر بتاريخ ١٤١٥/١/١٧هـ)

**ملخص البحث**. يهدف هذا البحث إلى دراسة الاتجاه النقدي في روايات الزبير بن بكار وهو موضوع لم ينل عناية تذكر من قبل الدارسين الذين أشادوا بمكانة الزبير العلمية. ويحاول الباحث في هذه الدراسة إبراز هذا الجانب المجهول من جهود الزبير العلمية. وهو جانب وإن لم يكن شائعًا شيوع رواياته الكثيرة، إلا أنه كان حاضرًا ينبىء عن عقلية تتمتع بحس نقدي. ولذا كان اهتمام الباحث بهذا الموضوع.

لقد تناول البحث عددًا من آراء الزبير النقدية، منها ما يمكن اعتباره قضايا نقدية عامة، تتصل بالمادة المروية، وكان دور الزبير فيها هو رصده لعدد من القضايا النقدية التي أثارت اهتمام النقاد قبل عصره وعليها دارت مباحثهم ومنها ما يمكن اعتباره نقدًا ذاتيًا صدر عن الزبير، ويمثل وجهة نظره الفنية البحتة.

فمن الصنف الأول عنايته بنقد الشعراء لمعاصريهم أو لغيرهم من المتقدمين. ومن الصنف الثاني أقواله التي تعبر عن آرائه النقدية في عدد من القضايا التي شغلت النقاد في عصره ومن أبرزها: توثيق النصوص، والمفاضلة أو الموازنة بين شعرين أو شاعرين، والسرقات الشعرية.

بجانب اهتمامه بقضايا نقدية أخرى، قد لا ترقى إلى مستوى القضايا السابقة مثل حديثه عن العوامل البيئية وأثرها على الشعر والشعراء، وسقطات الشعراء.

لقد وقف الباحث عند هذه القضايا وفصّل القول فيها، وقد أظهرت الدراسة استقلالية الرأي عند الزبير في عدد من القضايا التي تناولها موضوع البحث.

## تمهيـــد

شهد القرن الثالث الهجري تدوينًا نهائيًّا للشعر العربي القديم. كما شهد هذا العصر أيضًا نشاطًا في التأليف، حيث أُلِّف الكثير من الكتب في سير الشعراء وأخبارهم. وقد نوقشت قضايا الشعر في هذا العصر بشمول لم تعرفه العصور السابقة. والتي كانت فيها الأحكام النقدية عبارة عن آراء سريعة من خلال أحكام مرسلة يطلقها قائلوها معتمدين في ذلك على أذواقهم ومعرفتهم بالشعر. وهذا أمر يبدو متفقًا مع تطور الحياة العربية في ذلك العصر. مع ما رافق ذلك من حركة علمية نشيطة، جمعت بين تحقيق الشعر ودراسته ونقده. وخلفت للمهتمين والمتخصصين عددًا من الدواوين، استفاد منها النقاد الذين أصلوا للنقد العربي، وانطلقوا من خلالها إلى النقد ودراسة الشعر. وإن كان النقد قد وجد قبل هذا العصر، فمنذ العصر الجاهلي اهتم العرب بدراسة الشعر ونقده. فالنابغة الذبياني «كان يضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها.»[1] وفيه استمع إلى قصيد الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت وفاضل بينهم. وفي عصر صدر الإسلام كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشهر الخلفاء الراشدين عناية بالشعر ومعرفة به. وكان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر، وقد حكم للنابغة بأنه أشعر شعراء غطفان.[2] وقدم زهيرًا وجعله أشعر الشعراء وعلل ذلك بقوله: «كان لا يعاضل بين القول، ولا يتبع حوشي الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه.»[3]

---

(١) عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، جـ١، ص١٦٧؛ محمد بن عمران المرزباني، *الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء*، وقف على طبعه واستخرج فهارسه، محب الدين الخطيب، ط٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٥هـ)، ص ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٦٤هـ/١٩٧٤م)، جـ١، ص٥٦؛ وانظر: ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص٦٣؛ وانظر: ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨، ١٤٣.

فالشعر في تلك الفترة يلقى القبول وينال الإعجاب حينما ينحو نحوًا أخلاقيًّا. وفي عصر الأمويين اكتفى النقد بالأحكام العامة المرسلة وشاعت عبارات أشعر العرب أو أشعر الناس أو هذا أشعر بيت قالته العرب.(٤)

وفي أحيان أخرى نرى النقد في هذا العصر لا يخضع للحاسة الفنية ولكن تحكمه العصبيات والأهواء السياسية. وهذا أكثر ما يظهر في شعر الأحزاب السياسية، فعبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر، ومع ذلك نراه يطرب لقصيدة الأخطل «خف القطين»(٥) ويعده من أجلها أشعر العرب.(٦)

ولم يقتصر الأمر على عبدالملك فقد فضله أيضًا الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز. وهذا التفضيل كانت له أسباب سياسية بحتة.(٧)

وفي عصر العباسيين زاد اهتمام العلماء بدراسة الشعر ونقده. فأبو عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، والمفضل الضبي، والأصمعي، وأبوعبيدة وغيرهم من الرواة عنوا بالشعر وهم وإن تعصبوا لكل ما هو قديم،(٨) إلا أنهم مع ذلك أخضعوا مختاراتهم من أشعار العرب لمقاييس علمية برزت في مستوى النصوص المختارة من حيث اللغة والموضوعات والأغراض

---

(٤) المرزباني، *الموشح*، انظر على سبيل المثال الصفحات ٩٧، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١٢٧، ١٣٣.

(٥) غياث بن غوث التغلبي الأخطل، *شعر الأخطل*، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٢ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، جـ١، ص٩٢.

(٦) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، ط١ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.)، جـ٨، ص ص ٢٨٨، ٢٩٤، ٣٠٧.

(٧) فخر الدين قباوة، *الأخطل الكبير حياته وشخصيته وقيمته الفنية*، ط٢ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٢٩١؛ وانظر أيضًا: سيد غازي، *الأخطل شاعر بني أمية*، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)، ص١٠٨ وما بعدها.

(٨) الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، جـ٨، ص ص ٢٨٥، ٢٨٦؛ ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص٦٣.

وحتى نهاية القـرن الثاني الهجري اهتم بالشعر ودراسته ونقده، طوائف كثيرة متفاوتة في ثقافتها متباينة في أذواقها وأهوائها وميولها.(٩)

أما في القرن الثالث الهجري الذي شهد ذلك النشاط الذي أشرنا إليه فقد تطورت الحياة النقدية، مع التطور الزمني، الذي أصاب الحياة العربية في عصر العباسيين. وقد استفاد النقد من الجهود السابقة ومن حركة جمع الشعر وتدوينه.

وإذا كان ابن سلام في بداية هذا القرن (ت ٢٣١هـ) قد وضع أصول النقد العربي المـدون. فإن الجـاحظ المتـوفى سنة ٢٥٥هـ وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) قد طورا في بعض المفاهيم النقدية، وعرضا لها بشمول أوضح، معتمدين في ذلك على عدد من المعايير النقدية التي لم يأخذ بها ابن سلام من قبل.(١٠)

---

(٩) يقول الجاحظ: «ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب. ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج. ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثـل.» عمرو بن بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ط٤ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، جـ٤، ص٢٤.

وفي كتـاب *العمـدة* نسب ابن رشيق إلى الجاحظ قوله: «طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدبـاء الكتاب: كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبدالملك الزيات، الحسن بن رشيق القيرواني،» *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٢ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، جـ٢، ص١٠٥.

(١٠) عرض لهذا الموضوع وتناوله بالعرض والتحليل عدد من الدارسين، أذكر منهم على سبيل المثال: إحسـان عبـاس، *تاريخ النـقـد الأدبي عنـد العـرب*، ط٢ (بـيروت: دار الثقـافـة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ص ٩٤ ـ ١٠٤، ١٠٤ ـ ١١٥؛ داود سلوم، *النقـد المنهجي عنـد الجاحظ*، ط٢ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٥١ وما بعدها؛ محمد مندور، *النقد المنهجي عند العرب* (القاهرة: دار نهضة مصر، د. ت.)، ص٢٣ وما بعدها؛ بدوي طبانة، *دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث* (بيروت: دار الثقافة، د. ت.)، ص٢١٣ وما بعدها.

## الزبير الراوية والاتجاه النقدي في مروياته

عاش الزبير في تلك الفترة التي نشط فيها جمع الشعر وتصنيفه وتدوينه (١٧٢ ـ ٢٥٦هـ)، وكان من أشهر الأخباريين والنسابين الذين عرفهم القرن الثالث. وصفه الخطيب البغدادي فقال: «كان ثقة ثبتًا عالمًا بالنسب، عارفًا بأخبار المتقدمين وسائر الماضين، وله الكتاب المصنف في نسب قريش وأخبارهم.»[١١] وقال ابن النديم: «أبو عبدالله، الزبير بن أبي بكر بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام، من أهل المدينة أخباري أحد النسابين، وكان شاعرًا، صدوقًا، راوية، نبيل القدر.»[١٢]

ووصفه ياقوت فقال: «كان علامة نسابة، أخباريًا وعلى كتابه في أنساب قريش الاعتماد في معرفة أنساب القرشيين، وكان ثقة من أوعية العلم.»[١٣] عني الزبير بالشعر واشتهر بمؤلفاته عن الشعراء وأخبارهم، خصوصًا شعراء أهل الحجاز. وقد أحصى له ابن النديم في *الفهرست* وياقوت في معجم *الأدباء* تصانيفه في أخبار الشعراء فقط فبلغت تسعة عشر مؤلفًا، من بينها كتاب سمّاه *إغارة كُثَيِّر على الشعراء*.[١٤]

---

(١١) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ط دار الباز للنشر والتوزيع (بيروت: دار الكتب العربية، د.ت.)، جـ٨، ص٤٦٧.

(١٢) ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، معجم *الأدباء* (بيروت: دار التراث العربي، د.ت.)، جـ١١، ص١٦١ وما بعدها.

(١٣) ترجمة الزبير بن بكار، أوردها المحقق الفاضل محمود محمد شاكر في مقدمة جمهرة *نسب قريش وأخبارها*، جمعها من مختلف المصادر ووضع ثبتا مفصلا باثنين وعشرين مصدرًا ترجمت له. انظر: أبو عبدالله، الزبير بن أبي بكر بكار، *جمهرة نسب قريش وأخبارها*، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٨١م)، المقدمة، ص ص ٥٤، ٥٥ ـ ٧٢.

(١٤) انظر: محمد بن إسحاق بن النديم، *الفهرست* (بيروت: دار خياط، ١٩٦٤م)، ص١٦٠؛ الحموي، معجم *الأدباء*، جـ١١، ص ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

وإذا كانت الكتب التي ألفها الزبير في أخبار الشعراء لم يصل إلينا منها إلا شعر *أبي دهبل الجمحي وأخباره*،(١٥) ونتف من «أخبار حاتم الطائي»(١٦) و«أخبار عبدالرحمن بن حسان،»(١٧) إلا أن هذه الكتب التي سقطت ولم يعثر لها على أثر كانت بلا شك من أهم المصادر التي اعتمد عليها أصحاب كتب التراجم، فمثلاً كتاب الزبير عن الأحوص الذي ذكره ابن النديم وياقوت من بين مؤلفاته عن الشعراء، لا يزال مفقودًا. إلا أن ما ذكره أبوالفرج الأصفهاني في مواضع عدة من كتابه عن الأحوص منسوبًا إلى الزبير يوحي بأن هذا الكتاب كان أحد مصادر أبي الفرج. فأخبار الأحوص في *الأغاني*، لا يكاد يخلو من إسناد للزبير أو رواية له.(١٨) ومثل هذا يمكن أن يقال عن تراجم عمر بن أبي ربيعة وكثير وجميل بن معمر وعبيدالله بن قيس الرقيات والمجنون والنصيب والعرجي وابن هرمة وأمية بن أبي الصلت وغيرهم من شعراء أهل الحجاز. ممن صنف في أخبارهم الزبير فسقطت كتبه ولم يصل إلينا منها إلا ما احتفظت به كتب الأخباريين ممن جاءوا بعده.

فالأصفهاني يذكر أبياتًا ينسبها لعمر بن أبي ربيعة يعلق عليها قائلاً: «وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثيّر، ويرويها الكوفيون للكميت بن معروف الأسدي، وذكر بعضها الزبيرُ بن بكار عن أبي عبيدة لكُثَيِّر في أخباره.»(١٩)

ولم يقتصر اهتمام الزبير على شعراء أهل الحجاز، بل تعداهم إلى غيرهم من شعراء العربية. فالرَّماح بن أبْردَ المُرِّي المعروف بـ«ابن ميَّادة» أفرد الزبير سيرته في مصنف سماه «أخبار ابن ميَّادة» ضاع كما ضاع غيره من مصنفاته. ومع أن أبا الفرج أفرد لابن ميَّادة ترجمة

---

(١٥) Fritz Krenkow, "The Diwan of Abu Dahbal Al-Jumahi," *Journal of the Royal Asiatic Society*, 20, No. 2 (1910), 1017-75.

(١٦) الزبير بن بكار، *الأخبار الموفقيات*، تحقيق سامي مكي العاني (بغداد: مطبعة العاني، د. ت.)، ص ص ٢٠٢ ـ ٤٦٠.

(١٧) ابن بكار، *الأخبار الموفقيات*، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٨٢.

(١٨) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٤، ص ص ٢٢٤ ـ ٢٦٨؛ وفي ص٢٤٧ علق أبو الفرج على أبيات ذكرها للأحوص فقال: هذه الأبيات من رواية الزبير وحده. وانظر أيضًا في أخبار الأحوص الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٦، ص ص ٢٤٥ ـ ٢٥٩؛ وكذلك جـ٢١، تحقيق عبدالكريم العزباوي ومحمود غنيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص ص ٩٦ ـ ١١٢.

(١٩) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ١٢٤.

مطولة[٢٠] قال عنها محقق ديوانه : «أما الأصفهاني، فقد أفرد لابن ميَّادة ترجمة مطولة في الجزء الثاني، من كتابه الأغاني، لم نقف على مثلها عند من سبقوه أو تأخروا عنه وهي ـ كما نظن ـ أساس كل ترجمة لابن ميَّادة جاءت تالية لترجمته هذه ورافدًا مهمًّا من روافدها . »[٢١]

وبالرجوع إلى ترجمة الأصفهاني هذه نلاحظ أن معظم الأسانيد والروايات في هذه الترجمة وردت عن طريق الزبير. مما يوحي أن كتاب الزبير عن ابن ميَّادة كان أحد مصادر أبي الفرج .

ومرويات الزبير التي قلّ أن يخلو منها أي مصدر أدبي أو تاريخي ، أمدتنا بمادة قيمة ، هي منطلقنا لدراسة الاتجاه النقدي عنده . حاولنا لـمَّ شتاتها من مصادرها المختلفة منها ما يمكن اعتباره قضايا نقدية عامة ، تتصل بالمادة المروية . وكان دورالزبير فيها هو رصده لعدد من القضايا النقدية التي أثارت اهتمام النقاد قبل عصره ، وعليها دارت مباحثهم وجهودهم . ومنها ما يمكن اعتباره نقدًا ذاتيًّا صدر عن الزبير، ويمثل وجهة نظره الفنية البحتة .

فمن القضايا النقدية العامة التي أولاها الزبير عناية خاصة واهتم برصدها كثيرًا في مروياته : نقد الشعراء .

فقد احتفظت كتب الأدب والتراجم والنقد بنماذج كثيرة لمرويات الزبير، تناولت نقد الشعراء لمعاصريهم أو لغيرهم من المتقدمين . وقد رسمت تلك النماذج صورًا مختلفة لماهية النقد قبل عصر الزبير. وتكمن قيمة هذا العمل في أنه كشف للدارسين عن جزء مهم من تاريخ النقد العربي قبل تدوينه . لقد أثبت الزبير من خلال مروياته الكثيرة عن شعراء أهل الحجاز آراء مجموعة كبيرة من الشعراء . ولا شك أن تلك الأحكام التي أطلقها هؤلاء الشعراء من قبل كان لها أثرها وصداها في كتب النقد المؤلفة بعد ذلك . فالزبير يقول عن قصيدة النصيب :

---

(٢٠) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢، ص ص ٢٦١ ـ ٣٤٠ .

(٢١) *شعر ابن ميّادة*، جمع وتحقيق حنا جميل حداد (دمشق : مجمع اللغة العربية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص١٢ .

بِزَيْنَبَ أَلْـمِمْ قَبْـلَ أنْ يرحَلَ الرَّكْبُ

وهي أجود ما قال.(٢٢)

وهذا الحكم المرسل شائع في تراثنا النقدي قبل تدوين النقد وبعده وفي كتاب ابن سلام نماذج كثيرة لتلك الأحكام المرسلة.(٢٣) والزبير شأنه في ذلك شأن ابن سلام من قبل. قد يكون محقًّا في تقديمه لقصيدة النصيب، ورأيه فيها قد يكون ذاتيًّا وصادرًا عن منظور فني بحت إلا أننا مع ذلك لا يمكن أن نغفل الأثر الذي تركه إعجاب شاعرين كبيرين من قبله، كانـا معـاصرين للنصيب هما جرير بن عَطِيَّة وجميل بن مَعْمَرْ فكلاهما سبق الزبير بالحكم على جودة هذا النص، وكلاهما عبر عن إعجابه بهذا النص، بل إنهما ذهبا إلى أبعد من ذلك، حين حسدا الشاعر على هذه القصيدة وتمنى كل منهما أن يكون هو القائل وليس النصيب.(٢٤)

والزبير وإن حكم بجودة هذا النص، معتمدًا في ذلك على ذوقه وخبرته الشخصية. فما دام أنه لم يلتمس أسبابًا محددة لاستحسانه ولم يركن إلى نظرية خاصة به. فهذا يوحي بتأثره بتلك الأحكام السابقة التي قدمت هذا النص على ما سواه من أشعار النصيب.

ومن يُمْعِن النظر في كتب النقد المؤلفة في القرن الثالث الهجري وبعده، سيقف على قدر من تلك الأحكام التي أطلقها الشعراء من قبل تأثر بها النقاد وقالوا بها.

وإذا كان عصر صدر الإسلام في نظر أكثر الدارسين يعد عصر ركود أدبي فقد شهد أواخر القرن الأول في عصر الأمويين ازدهارًا في نهضة الشعر، فكثر عدد الشعراء وتنوعت أغراض الشعر وكثر عدد المشتغلين بالنقد من الشعراء. فقد حفلت مرويات الزبير بالعديد من الـروايات التي تحمـل أحكامًا نقدية صدرت عن فحول شعراء هذا العصر وتناولت مختلف أغـراض الشعر. فالفرزدق وجرير على اختلاف طبيعتيهما في نظم الشعر وميولهما

---

(٢٢) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٦، ص ١٢٣.

(٢٣) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، انظر على سبيل المثال الصفحات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٦٣، ٦٥، ١٢١، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٢.

(٢٤) تقديم جميل وجرير لهذا النص دون سواه من أشعار نصيب وردا في خبرين منفصلين، حدث بهما الزبير بن بكار بسند متصل، الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٦، ص ص ١٢٠، ١٢١.

وأهوائهما يعجبان بغزل عمر بن أبي ربيعة لأنه أخذ أبعادًا جديدة، واستحدث طرقًا لم يألفها الشعراء من قبل. وقد سلك مذهبًا جديدًا مغايرًا لما كان القدماء يصطنعونه، وقد أرادته الشعراء من قبل فأخطأته فأصابه هذا القرشي،(٢٥) كما اهتم الزبير بالحديث عن مجالس الشعراء، خصوصًا ما كان يحدث بين شعراء المذهب الواحد. وكان يغلب على تلك المجالس النقد الأدبي. ومن تلك المجالس التي ذكرها الزبير وتعرضت لها كتب التراث العربية بعد ذلك مجلس كُثيّر الذي ضمه مع عمر بن ربيعة والأحوص والنصيب.(٢٦) وفي ذلك المجلس أبدى كُثيّر استحسانه وإعجابه بنماذج مختارة مما قاله الشعراء الثلاثة، كما عاب عددًا آخر من قصائدهم ونقدها. وقد قابله الشعراء الثلاثة، بنقد مماثل لبعض شعره. وحينما خرجوا من عنده قال عمر بن أبي ربيعة: «هذا أخبث مدخول عليه في العرب.»(٢٧) هكذا كان النقد يمارس في تلك المجالس التي كان يعقدها الشعراء. وهكذا كثر حديث الشعراء بعضهم عن بعض. وقد أظهر الزبير اهتمامًا بهذا النوع من النقد. وكانت مروياته في هذا الموضوع مادة غنية استفاد منها الرواة من بعد عصره. فالمرزباني في *الموشح* لا يكاد يعرض لشاعر من شعراء أهل الحجاز إلا ويسند خبرًا له أو يروي عنه. وأهمية تلك الأخبار لا تقتصر على انفراد الزبير برواية الخبر بل نراه يوثق الخبر بإسناده إلى أناس عاصروا الشاعر أو من ذوي قرابته ومن ذلك خبره الذي انفرد به عن النصيب.

يقول المرزباني: «حدثني محمد بن إبراهيم قال حدثنا أحمد بن يحيى عن الزبير بن بكار قال: كتب إلي عبدالله بن عبدالعزيز بن محجن بن نصيب يقول حدثتني، عمتي،

---

(٢٥) حول إعجاب الفرزدق بغزل عمر انظر: الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ص ٧٥، ١١٦؛ وانظر: أحمد بن محمد بن عبد ربه، *العقد الفريد*، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، جـ٥، ص٣٩٧؛ ولمقولة جرير في غزل عمر، انظر: الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص١٠٦.

(٢٦) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، جـ٥، ص٣٧٢؛ الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١٢، ص١١٣؛ المرزباني، *الموشح*، ص١٤٧.

(٢٧) وانظر: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، *الكامل في اللغة والأدب*، تحقيق محمد أحمد الدالي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، جـ٢، ص٦٨٦؛ وانظر: عبدالقادر بن عمر البغدادي، *خزانة الأدب*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م)، جـ٨، ص٣٨٦.

عوضة بنت النصيب أن أباها جلس مع إبراهيم بن عبدالله بن مطيع بودان، فقال له إبراهيم: يا أبا محجن، ألا تخبرنا عنك وعن أصحابك؟ قال: بلى، جميل أصدقنا شعرًا، وكُثيّر أبكانا على الظعن، وابن أبي ربيعة أكذبنا، وأنا أقول ما أعرف.»(٢٨)

ويعلق عبدالجبار المطلبي على نقد نصيب فيقول: «ومع أن أحكامه هذه عامة إلا أنها تحمل في ثناياها مقاييس فنية، فصدق التعبير لدى جميل في ترجمته لإحساسه حيال بثينة تقابله براعة كُثيّر في وصف الفراق ولوعته. أما ابن أبي ربيعة فقد يكون مبرزًا عليهم في تأليف قصص الحب ونسجها، وفي القدرة الفائقة على وصف المرأة في قوله الآخر، وترجمة عواطفها وأهوائها وعلاقتها مع الرجل، يبقى رأيه في نفسه: إنه يقول ما يعرف وفي هذا شيء من الواقعية وصدق التعبير، وهو بعد ذلك قول يبعده عن الكذب والتمحل والادعاء، وفيه من التواضع ما عرف به نصيب، ولكنه يعني أيضًا، أنه محدود لا يبعد صاحبه إلى مشارف عبقر كالملهمين من الشعراء حيث يصدرون عنه بأوابدهم.»(٢٩)

لقد شاعت المفاضلة بين شعراء المذهب الواحد. وكان لازدهار الشعر في بيئة الحجاز، وإقبال الحجازيين على شعر الغزل أثر في ازدهار هذا الفن الشعري. فالتحول الكبير الذي طرأ على الحياة الاجتماعية خلال الربع الأخير من القرن الأول الهجري، ترك أثره على النتاج الشعري أيضًا. وإذا كان الحجاز قد شهد ركودًا أدبيًّا خلال نصف القرن الأول، فقد عرف ازدهارًا أدبيًّا رائعًا خلال الربع الأخير منه وكانت له شخصيته الظاهرة وسماته الخاصة به. فقريش التي سادت القبائل الأخرى بعد ظهور الإسلام كانت العرب تفضلها في كل شيء إلا الشعر وفي تلك الفترة ظهر فيها عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي، والعرجي، وأبو دهبل وعبدالله بن قيس الرقيات فأقرت لها العرب بالشعر أيضًا.(٣٠) وما يصدق على مكة، يصدق على غيرها من حواضر الحجاز وباديه. وقد تعصبت قريش لعمر بن أبي ربيعة كما تعصبت القبائل الأخرى لشعرائها. يقول الزبير في هذا المعنى: «أدركت مشيخة من قريش لا يَزنُوَن بعمر بن أبي ربيعة شاعرًا من أهل دهره

---

(٢٨) المرزباني، *الموشح*، ص ص ١٤٩، ١٨٦.

(٢٩) عبدالجبار المطلبي، *دراسات في الأدب الإسلامي والأموي «الشعراء نقادًا»* (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٦م)، ص١٠٦.

(٣٠) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٣، ص ٣١٣.

في النسيب، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه، والتحلي بمودته والابتيار في شعره . »[٣١]

هذه العصبية التي اصطنعتها القبائل، كما اصطنعتها الدولة نفسها، جعلت عصر الأمويين يحفل بألوان من النشاط الأدبي، ظل مختفيًا في عصر النبوة والراشدين .

وإذا كان الحجاز في تلك الفترة قد فقد مركز الخلافة، وتحول السلطان السياسي إلى الشام، فقد احتفظ بالغنى والثروة، وأصبح الترف ظاهرة اجتماعية في حواضره . لذا ظهر الغناء في مكة والمدينة، وشاع الغزل في الحجاز كما شاع الهجاء في العراق، والمديح في الشام . وذلك تحت تأثير عدد من العوامل والمؤثرات خلفت بدورها ضروبًا من التعبير لم تكن مألوفة من قبل، فالحجاز اشتهر بقصائد الغزل، وقد التمس شعراؤه صيغًا وأنماطًا تعبر عن إحساس الشعراء بالتحولات الكبيرة التي أصابت المجتمع من حولهم . ولذا هجروا الأنماط القديمة المألوفة، كما هجروا أساليب الشعر القديمة . وتحت تأثير الغناء، طوعوا لغة الشعر لتناسب الغناء . فأصبحت اللغة عادية مألوفة ليس فيها غريب ولا مهجور . كما هجروا بحور الشعر التقليدية التي غلبت على أشعار المديح والهجاء والفخر والرثاء، واستعملوا البحور الخفيفة التي تناسب الغناء .

لقد ساعدت تلك المجالس الأدبية التي كان يقصدها الشعراء على شيوع النقد وتنوعه في تلك الفترة . ولذلك كثرت الموازنات بين بعض الشعراء وبعض . وكثر التعرض لمزاياهم وعيوبهم من حيث الصياغة وجودة الألفاظ ورداءتها . كما كثر الحديث عن المعنى من حيث دلالته ووضوحه وحسنه وقبحه . وقد اعتمد النقد في تلك الفترة على الفطرة والذوق، لا على تحليل النصوص، والوقوف على خصائصها .

ومن الاتجاهات النقدية الذاتية التي صدرت عن الزبير، وتعبر عن وجهة نظره الفنية، اهتمامه بقضايا نقدية، تعد من أبرز القضايا التي عالجها النقد في عصره مثل :

( ا ) توثيق النصوص .

(ب) المفاضلة أو الموازنة بين شعرين أو شاعرين .

(جـ) السرقات الأدبية .

---

(٣١) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ١١٨ . والابتيار: هو أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر به .

بجانب اهتمامه بقضايا أخرى قد لا ترتفع إلى مستوى القضايا السابقة من مثل حديثه عن: العوامل البيئية وأثرها في الشعر والشعراء وسقطات الشعراء.

**توثيق النصوص**

كان توثيق النصوص إحدى القضايا الرئيسة التي شغلت أذهان النقاد في القرن الثالث الهجري. فابن سلام في بداية هذا القرن سبق العلماء إلى التأليف في النقد العربي من خلال كتابه *طبقات فحول الشعراء*، وكان توثيق الشعر أهم قضية نقدية أثارها ابن سلام. فقد نثر في ثنايا صفحات كتابه عددًا من الآراء والأحكام، وأقر عدة مبادىء مهمة في مجال التوثيق كان لها أثرها وصداها في كتب النقد المؤلفة بعده. ثم جاء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) بعد ذلك ونثر عددًا من الآراء حول الشعر المنحول، وبسط القول في الرواة، فوثق العلماء «الذين اتسعوا في علم العرب، حتى صاروا إذا أُخْبِرَ عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم.»[٣٢]

وعلى الرغم من ذلك فقد وقف الجاحظ من بعض المرويات موقف الشك فدفع بعضها ورفض بعض الأشعار، مستعينًا على رفضها بالمنهج التاريخي، الذي قال به ابن سلام من قبل في رده على ابن إسحاق. ولهذا رفض الجاحظ قصيدة للشاعر الجاهلي، الأفوه الأودي، ورد فيها ذكر القذف بالشهب: وقال عنها: «وما وجدنا أحدًا من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة. وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي، قذْف، ورجْمٌ، وهو جاهلي، ولم يَدَّع هذا أحدٌ قَطُّ إلا المسلمون. فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة.»[٣٣] وفطن الجاحظ إلى أهمية دراسة صحة النص الشعري من خلال معرفتنا لحياة الشاعر وأسلوبه وطريقة نظمه يقول: وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر:

فانقضَّ كالدُّرِّيّ يتبعه نَقْعٌ يثُور تخالُه طُنُبَا

وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يَفْصِلُ بين شعر أوس بن حجر وشُرَيْح بن أوس،[٣٤] فقد اتخذ من تفاوت الشعر دليلاً على عدم صحة النسبة.

---

(٣٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *الحيوان*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، جـ٤، ص١٨٤.

(٣٣) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣٤) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص ٢٧٩.

وفيما يتعلق بطريقة النظم قال: «وقد طعنت الرواة في هذا الشعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم، من قوله:

والعَيْرُ يُرهِقها الحمار وجَحْشُها ينْقَضُّ خَلْفَهُما انْقِضَاضَ الكَوْكَبِ

فزعموا أنه ليس من عاداتهم أن يصفوا عَدْو الحمار بانْقِضَاض الكوكب ولا بَدَن الحمار ببدَنَ الكوكب.[٣٥]

وذكر أن في شعر بشر مصنوعًا كثيرًا، مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره، فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها:

فرجِّي الخَير وانْتَظِري إيابي إذا ما القارِظُ العَنَزِيُّ أبا[٣٦]

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها تبدو عناية الجاحظ بالجانب التوثيقي الذي عني بنقد النصوص وتوثيقها.

وهكذا كان الزبير الذي ألف الكثير من الكتب في سير الشعراء وأخبارهم، فقد اهتم بالنقد التوثيقي وأبدى عددًا من الملاحظات التي دلت على مقدار عنايته بتوثيق الأشعار وتصحيح الأخبار المتعلقة بها. فمن بين كتبه عن أخبار الشعراء كتابه عن أخبار حاتم. ومع أن هذا الكتاب لا يزال مفقودًا، إلا أن الجزء المطبوع من كتابه *الموفقيات* يحتوي على عدد من الصفحات خصها للحديث عن حاتم. وقد لاحظ فيها أن أخبار حاتم مخترعة وكذلك بعض الأشعار المرتبطة بها. وقد فطن الزبير إلى أن تلك الأشعار قد وضعت على لسان حاتم لتدعم تلك الأساطير التي تكثر في أخباره. ولهذا صرح برفضه لهذه الأشعار كما رفض الأخبار المرتبطة بها، لأنها تعبر عن أمور خارقة لا تكاد النفس تصدق بها ومن ذلك خبر أبي الْخَيْبَرِيِّ الذي مر على قبر حاتم مع نفر من أصحابه. حيث أورد الخبر وهذا نصه، منسوبًا إلى محرز مولى أبي هريرة قال: كان رجل يقال له: أبوخَيْبَرِيِّ، مر مسافرًا ونفر من قومه بقبر حاتم، بمكان يقال له: تُنَغَة، حوله أنصاب نوائح من حجارة كأنهن نساء، فنزلوا به، فبات أبوخَيْبَرِيِّ ليلته كلها يناديه بأعلى صوته: أبا جعر أقْرِ أضيافك، أبا جعر أقْرِ اضيافك، استهزاءً به وسخريةً.

---

(٣٥) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص ٢٧٩.

(٣٦) الجاحظ، *الحيوان*، جـ٦، ص ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

قال: فينادي في سواد الليل: مهلاً ما تكلم من رِمَّة بالية! والرمة: العظم البالي، وجمعها رمم. فيجيب المنادي ردًّا عليه فيقول: إن طيئًا تزعم أنه لم ينزل به أحد إلا قراه، فأجيب: أرقد فإنه سوف يقريك، فلما كان من آخر الليل قام أبوخَيْبَرِيٍّ حتى إذا كان في السحر هبَّ فزعًا وهو يصرخ بأعلى صوته: راحلتاه، راحلتاه، فقال له أصحابه: ويلك، ما دهاك؟ قال: خرج ـ والله ـ حاتم من قبره بالسيف، وأنا أنظر إليه حتى عقر ناقتي.

قالوا: كذبت ـ والله ـ لا يخرج ميت من بطن قبر مرسوس عليه، قال: بلى ـ والله ـ لقد فعل. فنظروا إلى راحلته فوجدوها عقرى لا تنبعث، فقالوا: فقد قراك فعمدوا إليها فنحروها، فظلوا يومهم ومن عندهم معرسين عليها يأكلون من لحمها، ثم ساروا عند آخر النهار، وأردفوه خلف أحدهم، وهم سائرون في بلاد طيىء، فساروا ما شاء الله، فنظروا إلى راكب قد أقبل كأنه يريدهم، فلما انتهى إليهم، فإذا هو عدي بن حاتم، وهو راكب بعيرًا، قارن جملاً أسود، وقد قرنه بحبل يقوده، حتى إذا دفع إليهم قال: إنكم القوم الذين نزلوا بقبر حاتم؟ قالوا: نعم. قال فأيكم أبوالخَيْبَرِيِّ؟ قالوا: هذا. قال: إن حاتمًا أتاني في منامي، فذكر لي تنقصك له، وشتمك إياه، وأخبرني: إنه قرى راحلتك أصحابك، وأنشدني في النوم أبياتًا، وردها عليّ مرارًا حتى حفظتها عنه، وقد أخلفك مكان راحلتك هذا الجمل الأسود، فاقتعده.

فقالوا: أنشدنا ما قال من الشعر، وما حفظت عنه، فأنشدهم:

أبَا خَيْبَرِيٍّ وأنتَ امرؤٌ ... ظَلُومُ العشِيرَةِ شَتَّامُها
ماذا أردْتَ إلى رِمَّةٍ ... بداويَّةٍ صَخِبٍ هامُها
تُبَغِّي أذَاها وتَغْتَابها ... وحَوْلَكَ غوْثٌ وأنْعامُها
وإنَّا لنُطْعِمُ أضْيَافَنا ... من الكُوم بالسَّيْفِ نعْتَامُها

الكوم: الإبل العظام الأسنمة.

وأخذ أبو الْخَيْبَرِيِّ من عدي الجمل واقتعده.

وحدث الزبير برواية أخرى لهذا الخبر فقال: حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي عن عبدالله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: «اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان جماعة، فتذاكروا الجود والسخاء، فقال رجل من القوم: أجود الناس حيا وميتا حاتم. قال معاوية: فكيف ذلك؟ فو الله إن الرجل من قريش ليعطي في مجلس واحد ما لم يكن حاتم

يملك مثله ولا قومه .

فقال الرجل : أخبرك يا أمير المؤمنين بجود حاتم ، أما حيًّا فقد بلغك وأما ميتًا ، فإن نفرًا من بني أسد مروا بقبر حاتم مسافرين ورئيسهم رجل يكنى أبا الخَيْبَرِيِّ ، فنزلوا بقبره معرسين وقالوا : والله لنبخلنَّه ، ولنخبرن العرب أنا نزلنا بحاتم فسألناه القِرى فلم يقرنا ، وأرادوا عيبه وتهجينه ، فجعلوا ينادونه في سواد الليل : أبا حاتم ألا تقري أضيافك ، فإذا بصوت منادٍ في جوف الليل :

أبـا الخَـيْبَرِيِّ وأنـت امـرؤٌ الأبيات .....

فهبوا من الليل ينظرون ، فوجدوا ناقة أحدهم تكوس عقيرًا ، فعجب معاوية من حديثه ، ومن كان معه . » .

وقـد علق الزبير على خبر أبي الخيبري فقال : «العرب تتحدث بأشياء هي عندها صحيحة ، وقد نطقت بذلك أشعارها ، وتمثلت به ولا تكاد النفس تصدق بها ، وأحسب أمر حاتم حيلة من ورثته ونسبوه إليه ، والله أعلم . »[٣٧]

ويؤيد ما ذهب إليه الزبير أن الشعر المرتبط بخبر أبي الخيبري رواه ابنه عدي ولهذا أنكره الزبير ولم يطمئن إلى صحته . كما أن الكثير من أخبار حاتم وشعره المروي في المصادر إنما جاء عن طريق رواة طائيين ، وبعض هؤلاء الرواة كانوا من أهل بيته كزوجة النوار وابنة عدي وغيرهما . وقد أشار ابن سلام من قبل إلى هذه الظاهرة ونبه عليها ، حينما ذكر من بين أسباب انتحال الشعر الذي لا يهتدى لوجهه وإنما عضل على الرواة هو : «أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال . »[٣٨]

ومن الأمثلة الدالة أيضًا على اهتمام الزبير بنقد الأخبار المروية عن بعض الشعراء ذلك الخبر الذي أخبر به الجوهري عن ابن شبّة قال : «بلغني أن يزيد بن عبدالملك كتب إلى عامله أن يجهز إليه الأحوص الشاعر ومَعْبَد المغني وذكر القصة في خبر طويل مع بعض الأشعار . »[٣٩]

---

(٣٧) ابن بكار ، *الأخبار الموفقيات* ، ص ص ٤٠٨ ـ ٤١١ .

(٣٨) الجمحي ، *طبقات فحول الشعراء* ، جـ١ ، ص ٤٧ .

(٣٩) الأصفهاني ، *الأغاني* ، جـ٢١ ، ص ص ١٠٨ ـ ١١١ .

وقد شك الزبير في الرواية وطعن في الأشعار واستعان على ذلك بواسطة أشياخه، يقول الزبير في خبره عن عمه «أظن القصة كلها مصنوعة، وليس يشبه الشعرُ شعر الأحوص ولا هو من طرازه»(٤٠) وكذلك ذكر عمر بن شبَّة في خبره.

فالزبير عند توثيقه للنصوص، كان يعتمد على ذوقه الفني، وخبرته الطويلة في حمل العلم فقد ظل أكثر من ستين عامًا يحدث ويحمل عنه العلم(٤١) ولا شك أن تلك السنين الطويلة قد أكسبته خبرة ودراية، جعلته محيطًا بأخبار الشعراء وعالمًا بمذاهبهم وأساليبهم، مع ما كان يتمتع به من حس أدبي وذوق أصيل. كل ذلك أسعفه، وأهّله لأن يكون مدركًا لمذاهب الشعراء وملمًّا بخصائص العصور الأدبية المختلفة، ولعل هذا هو الذي جعل الزبير يخرج عن إجماع العلماء في عدد من أحكامه النقدية. ولم يقتصر اهتمامه على الروايات الضعيفة أو القصائد المجهولة. بل تناولت نظراته النقدية بعض القصائد المشهورة والتي لا يخلو من الإشارة إليها أي مصدر أدبي فقصيدة قُتَيْلة بنت النَّضْر:

يا راكِبًا إنَّ الأُثَيْل مِظنَّةٌ من صُبْحِ خامسةٍ وأنت مُوفَّقُ

روتها المصادر الأدبية على مر العصور.(٤٢)

وحينما جاء الزبير على روايتها ذكر خبرها نقلاً عن عمه المصعب. بعدها أتى على ذكر أبيات القصيدة ثم عقب عليها قائلاً: «وقد سمعت بعض أهل العلم يغمز أبياتها هذه ويذكر أنها مصنوعة.»(٤٣)

---

(٤٠) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢١، ص ١١١.

(٤١) انظر: المقدمة القيمة التي كتبها محمود شاكر عن الزبير بن بكار في *جمهرة نسب قريش وأخبارها* (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٨١م)، المقدمة، ص ٣.

(٤٢) انظر على سبيل المثال: عبدالملك بن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق السقا وآخرين، ط٢ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، جـ٢، ص٤٢؛ أحمد بن يحيى البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق محمود حميد الله (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م)، جـ١، ص١٤٤؛ المصعب الزبيري، *كتاب نسب قريش*، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣م)، ص٢٥٥؛ الجاحظ، *البيان والتبيين*، جـ٤، ص٤٤؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، جـ٣، ص٢٦٥؛ الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص١٩.

(٤٣) الزبير بن بكار، *جمهرة نسب قريش*، جـ٢، محفوظ في مكتبة كوبرلي، استانبول، برقم ١١٤١ تحت اسم «كتاب نسب قريش ومناقبها،» لوحة ٢٨٠.

فشهرة القصيدة ورواية المصادر المتقدمة لها، لم تمنع الزبير من التحري عن صحة القصيدة والتثبت من صحة نسبتها.

وإذا كان ابن سلام يعتبر إجماع العلماء كافيًا لاعتماد صحة النص،[٤٤] إلا أن الزبير لم يأخذ بهذا المبدأ الذي قال به من قبل ابن سلام. فقصيدة: ألاَ لله قَوْمُ ولَدت أُخْتُ بَني سَهْمٍ، أجمعت المصادر على نسبتها إلى ابن الزبعري فقد نسبها مؤرج السدوسي[٤٥] (ت ١٩٥هـ)، وهشام بن محمد الكلبي[٤٦] (ت ٢٠٤هـ)، وابن سلام[٤٧] (ت ٢٣١هـ)، والمصعب الزبيري[٤٨] (ت ٢٣٦هـ)، وابن حبيب[٤٩] (ت ٢٤٥هـ)، وقد تابعهم بعد ذلك عدد من الرواة هم: البلاذري[٥٠] (ت ٢٧٧هـ)، وابن دريد[٥١] (ت ٣٢١هـ)، وابن عبدربه[٥٢] (ت ٣٢٧هـ) والقالي[٥٣] (ت ٣٥٦هـ) وغيرهم.

ومع ذلك نجد للزبير تعقيبًا على هذه القصيدة يخالف فيه ذلك الإجماع. ففي المخطوط من جمهرة نسب قريش (المجلد الثاني) لوحة ٤٤٠ قال الزبير: «وهي تغمز يعني

---

(٤٤) يقول ابن سلام في هذا المعنى: «وقد اختلف العلماء بعد في بعض الشعر، كما اختلف في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه.» الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص٤.

(٤٥) مؤرج بن عمرو السدوسي، *كتاب حذف من نسب قريش*، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص٦٦.

(٤٦) هشام بن محمد بن السائب الكلبي، *جمهرة النسب*، تحقيق ناجي حسن (بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص٨٥.

(٤٧) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص ٢٤٠.

(٤٨) الزبيري، *نسب قريش*، ص ٣٠٠.

(٤٩) محمد بن حبيب، *كتاب المحبر*، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر (بيروت: المكتب التجاري، د.ت.)، ص٤٥٧.

(٥٠) البلاذري، *أنساب الأشراف*، جـ١، ص٤٣.

(٥١) محمد بن الحسن بن دريد، *الاشتقاق*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص١٢٢.

(٥٢) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، جـ٥، ص٢٥٨.

(٥٣) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، *كتاب ذيل الأمالي والنوادر* (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، د.ت.)، ص١٩٦.

القصيدة، ثم حدَّث بسند قال فيه: أخبرني محمد بن يحيى عن عبدالعزيز بن عمران: أنها مصنوعة، صنعت بعد أن ذهب من الإسلام صَدرٌ.»

وفي *الأغاني*(٥٤) يورد أبو الفرج بسند له عن الزبير خبرًا يوضح فيه أن القصيدة لأبي نهشل نحلها ابن الزبعري. فالزبير بإيراده هذا الخبر، وكشفه عن ملابسات تأليف هذا النص لم يغفل الحديث عن أحد الأسباب الرئيسة التي شوهت الشعر في عصر الإسلام، وهو عبث أهل الأهواء السياسية والصراعات القبلية في شعر تلك الفترة.

وعلى الرغم من شهرة هذين النصين وتواتر روايتهما في كتب التراجم والأدب، فإن الزبير حين طعن في صحتهما لم يعتمد على رأيه الشخصي وحده مع أنه كان من أكثر الرواة معرفة وإحاطة بأخبار أهل الحجاز وأخبار شعرائهم، وقد أشاد بمصنفاته عدد من الرواة لفضله واطلاعه.(٥٥) لقد شك الزبير في صحة نسبة قصيدة قُتَيْلَة واعتمد في رأيه أيضًا على عدد من العلماء. وهو وإن لم يتطرق إلى الأسباب التي جعلته يرفض هذه القصيدة ولم يفصح عن قائلها كما ذهب إلى تفسير ذلك في القصيدة الأخرى التي ذكر أنها لأبي نهشل نحلها ابن الزبعري. إلا أن الأسباب الداعية إلى نظمها تبدو واحدة، فصراع القرشيين واختلافهم بعد ظهور الإسلام جعل أجيالهم المتأخرة تعبث بالشعر، فتنظم أشعارًا تنسبها إلى شعرائهم السابقين. والهدف من وراء نظم هذه الأشعار واضح وهو تحسين صورة بعض الأشخاص أو مواقف بعض الأسر التي كانت لها مع الرسول ﷺ مواقف عدائية كالنَّضْر بن الحارث الذي قتل صبرًا بأمر الرسول في غزوة بدر أو الحارث بن هشام الذي هرب بعد مقتل أخيه أبي جهل في بدر، فعيره حسان بن ثابت رضي الله عنه لفراره من المعركة، فالصراع الذي حدث في تلك الفترة ظهر أثره في الأدب بعد ذلك، حين اتخذت الأجيال اللاحقة من الشعر مظهرًا من مظاهر الصراع الذي عاد مرة أخرى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ومجيء الأمويين إلى الحكم.

**المفاضلة بين الشعراء**

المفاضلة عند الزبير تأخذ عدة أشكال فهو أحيانًا يفاضل بين نتاج شاعر وآخر وأحيانًا يقتصر على تفضيل قصيدة لشاعر دون سواها، فاشتغاله بالرواية لمدة تزيد على ستين عامًا

(٥٤) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ص ٦٢، ٦٣.

(٥٥) انظر ترجمة الزبير بن بكار لمحمود شاكر، *جمهرة نسب قريش وأخبارها*، جـ١، ص٥٥ وما بعدها.

مكنه من الاطلاع على نتاج الشعراء، فقد جمع بين الحفظ والرواية. لذا جاءت أحكامه عند المقارنة بين نتاج شاعر وآخر، أو المفاضلة بين قصيدة وسواها لا تخضع لمؤثرات تخرج به عن دائرة النص، فإجماع الرواة على تقديم شاعر لا يعتبره معيارًا يأخذ به، ما لم يكن ذلك قائمًا على أسس فنية بحتة، فالمعايير من وجهة نظره يمكن استخلاصها من خلال المقارنة بين نتاج شاعرين عاشا في بيئة واحدة وخضعا لظروف متشابهة وقد عبر عن تلك النظرة بكل وضوح حينما خالف رواة قريش الذين أجمعوا على تقديم عبدالله بن الزبعري وفضلوه على ضرار بن الخطاب. لكن الزبير خالفهم نظرتهم تلك فقدم ضرارًا على ابن الزبعري معتمدًا الجودة الفنية معيارًا لا يحيد عنه. فقد نظر إلى ما سقط إليه من شعر الشاعرين فقدم ضرارًا لهذا السبب.

وقد فطن الزبير إلى العوامل المؤثرة في ذلك الشعر كسقوط الكثير منه وضياعه لأنه «شعر لا يحتمل في الإسلام،»[٥٦] فألمح إلى ذلك حينما قال: أما ما سقط إليّ من شعرهما فحكمه قائم على أساس النظر فيما وصل إليه من شعرهما. فلو فرض أن رواة قريش قد فضلوا ابن الزبعري وقدموه على ضرار لوقوفهما على شعر لم يصل إلى عصر الزبير فإن ذلك لا يطعن في سلامة المنهج الذي أخذ به الزبير لأن هذا أيضًا يصدق على شعر ضرار. فكلاهما خضع لظروف متشابهة. فقد عرفا بنظم الشعر قبل الإسلام وبعد ظهوره تحملا عبء الدفاع عن قومهما قريش وظلا يعاديان الإسلام قولاً وعملاً ويعملان ضده حتى إسلامهما يوم فتح مكة.

إذن يمكن القول إنَّ تقديم الزبير لضرار ارتكز على معيار فني، هو جودة شعر ضرار. وهذا معيار نقدي سبق إليه الجاحظ. كما عبرت عنه كتب النقد والأدب التي ظهرت في القرن الثالث الهجري، فابن قتيبة يقول: «ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له، سبيل من قلَّد، أو استحسن باستحسان غيره.»[٥٧] ثم يصرح بأنه وهو يفاضل بين الشعراء اعتمد على مبدأ الجودة الفنية بغض النظر عن أزمان الشعراء، يقول في ذلك: «فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله

---

(٥٦) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٤، ص ١٤٠.

(٥٧) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص ٦٤.

أو فاعله، ولا حداثة سنه.»[٥٨] ولعل الزبير قد سبق ابن قتيبة إلى هذا المعيار النقدي، فقد قدم رواة قريش ابن الزبعري على ضرار بن الخطاب فخالف الزبير هذا الإجماع حينما قال: «يقول رواة قريش إنه كان أشعرهم في الجاهلية، وأما ما سقط إلينا من شعره، وشعر ضرار بن الخطاب، فضرار عندي أشعر منه وأقل سقطًا.»[٥٩] فهو لم يصدر حكمًا انطباعيًّا معتمدًا فيه على آراء السابقين وإنما كان موضوعيًّا في حكمه. فقد نظر في نتاج الشاعرين، فقدم ضرارًا وفضله على ابن الزبعري، معتمدًا في حكمه على بعض الأسس والمقاييس الفنية مثل كثرة الجيد في شعر الشاعر، وقوة السبك، وجزالة الأسلوب وفصاحة اللغة، وبراعة المعنى وهذا معيار أخذ به الأصمعي من قبل. فقد عد من كثر جيد شعره وغلبت عليه صفة الشاعرية فحلاً ولذلك لم يعد مهلهل بن ربيعة وهو من أقدم الشعراء الجاهليين عهدًا من الفحول على حين اعتبر حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم من الشعراء الفحول على الرغم من كونهما شاعريْن حضريين.[٦٠]

فالأصمعي كان ينظر في الفحولة إلى قوة السبك، وبراعة المعنى، ووفرة الشعر معًا. وهذا يتفق مع رواية أخرى نسبها ابن عبدالبر إلى الزبير، يقول فيها: «ولم يكن في قريش أشعر منه، وعن ابن الزبعري قال الزبير: ويقدمونه على ابن الزبعري، لأنه أقل منه سقطًا وأحسن صنعة.»[٦١] فخلو شعر ضرار من السقط، ربما قصد منه الزبير جزالة اللفظ، وشدة الأسر. وقد أخذ بهذا المعنى أبوعبيدة من قبل، فقد لاحظ أن شعر الأخطل يختلف عن شعر الفرزدق وجرير، لكونه أشبه الثلاثة بالجاهلية، وأشدهم أسر شعر، وأقلهم سقطًا.[٦٢]

---

(٥٨) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص ٦٤.

(٥٩) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، د.ت.)، جـ٣، ص٩٠٢.

(٦٠) عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي، *كتاب فحولة الشعراء*، تحقيق ش. توري، قدم لها صلاح الدين المنجد، ط٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ص ١١، ١٢.

(٦١) ابن عبدالبر، *الاستيعاب*، جـ٢، ص ٧٤٨.

(٦٢) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٨، ص ٢٩٢.

كما أن ضرارًا أقل سقطًا من جهة المعاني، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الرسول ﷺ يهدر دم ابن الزبعري ولم يهدر دم ضرار،(٦٣) كما أن شعر ضرار قد نال إعجاب عمر رضي الله عنه واستحسانه ولهذا دعا إلى التغني بشعره.(٦٤) وأما الصنعة فكثير من شعر ضرار يرقى إلى مستوى عال من الجودة، وهذا ما جعل المفضل الضبي يقول حينما سمع أبياتًا من شعره: ما أجود هذه الأبيات وأفحلها.(٦٥) والصنعة في الشعر تعني «فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى، وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض.»(٦٦)

ويغلب على شعر ضرار وابن الزبعري المقطعات والقصائد القصار وبالنظر إلى شعرهما المجموع(٦٧) نلاحظ أن الزبير كان محقًا في تقديمه لضرار. فابن الزبعري كما يبدو لنا من خلال ما بقي من شعره شاعرًا قبليًا، يغلب على شعره مدح قومه والإشادة بفضائلهم وهجاء أعدائهم وقذفهم. على حين نجد ضرارًا وهو لا يقل عصبية لقومه قريش يمتاز عن ابن الزبعري بأنه شاعر فارس، غلب على شعره الفخر الذاتي، فهو كثير الحديث عن نفسه، وإذا فخر بقومه وتغنى بأمجادهم ومآثرهم، فسرعان ما يعود مرة أخرى للحديث عن نفسه. ومردّ ذلك يعود إلى إحساسه بمكانته الاجتماعية المتميزة. فقد جمع بين الرئاسة والفروسية والشجاعة، ولهذا تميزت أشعاره بالنزعة الفردية، وأصبحت أظهر في شعره وأكثر بروزًا من النزعة القبلية التي ميزت شعر ابن الزبعري، ومعلوم أن شعر الفخر يقوم على التعبير الجزل واللفظ القوي. فضرار كان فارسًا شهمًا ولذا كان شعره تمثيلًا صادقًا لأخلاقه،

---

(٦٣) عز الدين بن الأثير الجزري، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥م)، جـ٢، ص٢٤٨.

(٦٤) الزبيري، *نسب قريش*، ص٤٤٨؛ وانظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، *الإصابة في تمييز الصحابة*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت.)، جـ٣، ص٤٨٤.

(٦٥) الأصفهاني، *الأغاني*، تحقيق عبدالكريم العزباوي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م)، جـ١٩، ص١٩١.

(٦٦) القيرواني، *العمدة*، جـ١، ص ١٢٩.

(٦٧) شعر *عبدالله بن الزبعري*، تحقيق يحيى الجبوري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)؛ شعر *ضرار بن الخطاب الفهري*، دراسة وجمع وتحقيق عبدالله بن سليمان الجربوع (مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة الثقافي، الكتاب «٦٣»، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ولذا جاءت معانيه أقل سقطًا من ابن الزبعري الذي أقذع في هجاء المسلمين وبالغ في شتمهم، مما جعل الرسول ﷺ يهدر دمه. وفي شعر ابن الزبعري الذي قاله بعد إسلامه معتذرًا فيه إلى الرسول ﷺ ما يؤكد عدوانيته ونزعته القبلية يقول:

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِساني رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أُجارِي الشَّيْطانَ في سَنَنَ الغيِّ، ومنْ مال مَيْله مثْبور

ويقول من قصيدة أخرى:

إنِّي لَمُعْتَذِرٌ إليك من الَّذي أسدَيْتُ، إذْ أنَا في الضَّلال أهيمُ
أيَّامَ تأمُرُني بأغْوى خُطَّةٍ سَهْمٌ، وتأمُرُني بها مَخْزومُ(٦٨)

ولعل هذا هو ما جعل الزبير يفضل ضرارًا ويقدمه على ابن الزبعري، لأنه أقل منه سقطًا وأحسن صنعة.

**تفضيله لبعض النصوص وتقديمه لها**

من المقاييس الشائعة في تراثنا النقدي، مقياس الجودة، وقد قال به العرب وصرّحوا به، من خلال إعجابهم ببعض القصائد وتقديمها على ما سواها من نتاج الشاعر. إلا أنهم مع ذلك يكتفون بعبارات توحي بالإعجاب دون أن يصرّحوا برأي يحدد أسباب هذا الإعجاب. وقد ظل هذا هو شأن النقد فيما قبل عصر الزبير وبعده. فكتب النقد العربية المؤلفة في القرن الثالث الهجري لم تقدم نظرية خاصة، تحدد من خلالها معايير الجودة الفنية في الشعر. إنما ظهر ذلك وبرز بشكل أكثر وضوحًا من خلال كتب النقد المؤلفة في القرنين الرابع والخامس؛ يلاحظ ذلك في *عيار الشعر* لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفى سنة **٣٢٢**هـ، وفي كتاب *نقد الشعر* لقدامة بن جعفر المتوفى سنة **٣٣٧**هـ.

وفي القرن الخامس الهجري نلاحظ أن ابن رشيق المتوفى سنة **٤٥٦**هـ يقدم الشاعر الذي يعنى بتنقيح شعره وتهذيبه ويعتبر القليل الجيد خيرًا من الكثير الساقط؛ يقول عن الشاعر الجيد: «ولا يكون الشاعر حاذقًا مجودًا حتى يتفقد شعره، ويعيد فيه نظره، فيسقط

(٦٨) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص ص ٢٤٢، ٢٤٣.

رديئه، ويثبت جيده، ويكون سمحًا بالركيك منه، مطرحًا له، راغبًا عنه، فإن بيتًا جيدًا مقام ألف رديء.»[٦٩]

وإذا كانت الدراسات النقدية الحديثة تذهب إلى أن النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري تأثر إلى حد بعيد بالنهضة العلمية الأدبية التي شهدها القرن الثالث.[٧٠] فقد أسهم الزبير بن بكار في هذه الجهود، حيث ألف العديد من الكتب في سير الشعراء وأخبارهم، خصوصًا شعراء أهل الحجاز، مما جعله يعنى بالحديث عن الاتجاهات الجديدة عند شعرائه.[٧١]

ومن أمثلة ذلك أن عمر وجميلاً يمثلان تيارين مختلفين، فكلاهما أستاذ مدرسة عرف بها واشتهر. ومع ذلك حلا للنقاد المقارنة بينهما: يقول الزبير: كان عمر يعارض جميلاً، فإذا قال هذا قصيدة قال هذا مثلها. فيقال: «إنه في الرائية والعينية أشعر من جميل، وإن جميلاً أشعر منه في اللامية.»[٧٢]

ويخالف الزبير هذا الرأي فيقول: «من الناس من يفضلون قصيدة جميل اللامية على قصيدة عمر، وأنا لا أقول هذا، لأن قصيدة جميل مختلفة غير مؤتلفة، فيها طوالع النجد

---

(٦٩) القيرواني، *العمدة*، جـ١، ص ٢٦٥.

(٧٠) طه أحمد إبراهيم، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب* (بيروت: دار الحكمة، د.ت.)، ص١١١؛ عبدالعزيز عتيق، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*، ط٤ (بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٣١٣.

(٧١) عرف الحجاز في عصر الأمويين نشاطًا أدبيًا لم يعرفه من قبل ولا من بعد. وكانت له شخصيته الظاهرة، وسماته القوية، وطابعه المميز. فهذا النشاط الأدبي الرائع الذي عرفته حواضر الحجاز وبواديه في تلك الفترة قاد الشعراء إلى التركيز على موضوع واحد، حقق للقصيدة وحدة في الموضوع كانت تفتقدها في العصور السابقة. وأفضى إلى تجديد في معاني الشعر وصوره، وفي موضوعاته واتجاهاته، وفي ألفاظه وصياغته زاد من تلاؤم القصيدة وترتيب أجزائها وحقق لها وحدة شعورية وفنية تفاوتت من قصيدة إلى أخرى، ومن شاعر إلى شاعر، وقد أعجب الزبير بهذا الاتجاه الذي سلكه شعراء الغزل في الحجاز في عصر الأمويين. ولذا قدم جميل بن معمر وعمر بن ربيعة في النسيب وجعل الشعراء لهما تبع، يقول الزبير: ليس من شعراء الحجاز يتقدم جميلاً وعمر في النسيب والناس لهما تبع؛ القالي، *كتاب الأمالي*، جـ٢، ص٧٥.

(٧٢) القالي، *كتاب الأمالي*، جـ٢، ص٧٤؛ الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص١١٦.

وخـوالد المهد، وقصيدة عمر بن أبي ربيعة ملساء المتون، مستوية الأبيات، أخذ بعضها بأذناب بعض ولو أن جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لارتُجّ عليه وعثر كلامه به.»(٧٣)

فالزبير يشير إلى قضية نقدية شغلت النقاد كثيراً وهي وحدة القصيدة. والحق مع الـزبير إذ إنّ الوحدة الموضوعية في قصيدة عمر تعد من أبرز خصائص شعره، فقصائده ومقـطعـاتـه ذات موضوع واحد. وهو في هذا يلتقي مع جميل بن معمر، فكلاهما حقق للقصيدة وحـدة في الموضوع نفتقدها في الشعر الجاهلي والإسلامي، وفي الشعر الأموي نفسه. إلا أن الوحدة في قصيدة عمر تبدو ـ مترابطة النسج، متكاملة الخلق، آخذ بعضها برقاب بعض مع تتابع المعنى. وعمر حتى في مطولاته يعرض لنا قصة غنية، كثيرة المواقف، متعددة الشخوص في تناسق تام، وصياغة رائعة. والقصيدة عنده وإن تعددت أجزاؤها يصعب فك بعضها عن بعض، كما يصعب التقديم والتأخير فيها. ورائيته المطولة «أمِنْ آل نُعْمٍ» خير شاهـد على ذلك فقد عرض لنا فيها قصة كاملة متتابعة الحوادث تتمثل فيها بجانب وحدة الموضوع وحدة الفكر والمشاعر معًا.

ولا نجد هذا في شعر جميل، فكلما طالت القصيدة عنده، قل فيها التماسك واختل ترتيب أجزائها وقد لاحظ القط شيوع هذه الظاهرة في شعر العذريين بصورة عامة فقال: «فالوحدة وإن تحققت في الشكل العام للقصيدة، لم تكن شديدة التماسك في أبيات القصيدة نفسها، فإن كثيراً من الأبيات مجرد خطرات ولفتات شعورية متناثرة يمكن إعادة ترتيبها على أكثـر من وجـه. وقد علل لذلك بطبيعة التجربة المجردة الخالية من المواقف عند هؤلاء الشعراء، مما جعل الحب لديهم مجرد صور مطلقة لا تتلون بطبيعة اللحظات، أو الظروف الخاصة أو الأوضاع المميزة لكل تجربة عند كل شاعر. لذلك اختلط شعر بعضهم بشعر بعض ونسب إليهم كل ما يدور في فلك هذه الصيغة المجردة المطلقة للحب.»(٧٤)

وقد أتاح وصول شعر عمر إلى أيدي الدارسين التعرف على كثير من خصائص شعره على حين أن ضياع الكثـير من شعر جميل واختلاطه بغيره جعل الإحاطة بخصائص فنه صعبة المنال.

---

(٧٣) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢، ص ١٣٤.

(٧٤) عبدالقادر القط، *في الشعر الإسلامي والأموي* (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٦م)، ص ص ١٦٩، ١٧٠.

### السرقات الشعرية

صنف الزبير كتابًا سمّاه «إغارة كثيّر على الشعراء،» هذا الكتاب لم يصل إلينا، بل ضاع كما ضاع غيره من مؤلفات الزبير. ونحن وإن كنا نجهل محتوى هذا الكتاب إلا أن عنوانه يوحي بأنه اقتصر على سرقات كُثيّر دون غيره من الشعراء. وتخصيص كتاب كامل للحديث عن سرقات شاعر، قد يساء قصد مؤلفه منه، ويفسر بأن الدافع إلى تأليفه هو التحامل وليس إبراز عيوب الشاعر والكشف عن سقطاته. إلا أن هذه الظاهرة مع ذلك تظل حالة مألوفة في التأليف ظهرت قبل مؤلف الزبير عن كثيّر. فابن كناسة محمد بن عبدالله بن يحيى المتوفى بالكوفة لثلاث خلون من شوال سنة سبع ومائتين ذكر له ابن النديم من بين مؤلفاته: «كتاب سرقات الكميت من القرآن وغيره.»(٧٥) وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٠هـ أحصى له ابن النديم مؤلفاته فذكر له من بينها «كتاب سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه.»(٧٦) وظاهرة إغارة بعض الشعراء على شعر الآخرين، عرفها العرب منذ العصر الجاهلي. وقد ورد في أشعارهم ما يؤكد معرفتهم بهذه الظاهرة. فطرفة بن العبد يصرح بانتشار ظاهرة السرقة والإغارة على الشعر فيقول:(٧٧)

ولا أُغيرُ على الأشْعارِ أسْرِقُها عَنْها غَنِيتُ وشَرُّ النَّاس من سَرَقَا

وحسان بن ثابت ينفي هذه التهمة عن نفسه فيقول:(٧٨)

لا أسْرِقُ الشُّعراءَ ما نَطقُوا بل لا يُوافِقُ شِعْرَهُمْ شِعْرِي

وعلماء الشعر ورواته اتهموا بعض شعراء العرب بالسطو والإغارة، فالأصمعي تذكر عنه الروايات أنه قال عن شعر امرىء القيس: ويقال «إن كثيرًا من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه.»(٧٩) وأخبر ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني قال: سمعت

---

(٧٥) ابن النديم، *الفهرست*، ص ١٠٥.

(٧٦) ابن النديم، *الفهرست*، ص ١٠٨؛ الحموي، معجم *الأدباء*، جـ٢، ص٥٣.

(٧٧) *ديوان طرفة بن العبد*، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية (دمشق: دار الكتاب، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص١٨٠.

(٧٨) *ديوان حسان بن ثابت*، تحقيق وليد عرفات، ط أمناء سلسلة جب التذكارية (لندن: مطبعة لوزاك، ١٩٧١م)، جـ١، ص٥٣.

(٧٩) الأصمعي، *كتاب فحولة الشعراء*، ص ١٠؛ والمرزباني، *الموشح*، ص ٣٢.

الأصمعي يقول: «تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر.»[٨٠] والفرزدق ـ وهو أعظم شهرة وصيتًا من كثير ـ يعترف بذلك فيقول: «ضوالُّ الشعر أحبّ إليّ من ضوال الإبل وخير السرقة ما لم تقطع فيه اليد.»[٨١] ونسب ابن سلام إلى أبي عبيدة قال: كان قراد بن حنش من شعراء غطفان، وكان قليل الشعر جيده، وكان شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه فتدعيه، منهم زهير بن أبي سلمى.[٨٢]

ويروي ابن سلام أن النابغة الجعدي دخل على الحسن بن علي فودعه، فقال الحسن: أنشدنا من بعض شعرك فأنشده:

الحَمْدُ لله لا شَرِيكَ لَهُ　　　من لم يَقُلْها فنفْسَهُ ظَلَمَا

فقال له يا أبا ليلى! ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت؟ قال: يا ابن رسول الله، والله إني لأول الناس قالها، وإن السَّرُوق من سرق أميَّة شعره.[٨٣]

من هذه الشواهد والروايات وغيرها يتضح أن بعض شعراء العرب على اختلاف طبقاتهم وأزمانهم أغار بعضهم على بعض في أبيات معروفة. وقد خصص محمد مصطفى هدارة الفصل الثاني من كتابه: *مشكلة السرقات في النقد العربي* للحديث عن هذه الظاهرة وأتى بالكثير من الشواهد التي تمثل مختلف عصور الأدب العربي.[٨٤]

أما عن الزبير بن بكار فقد ساق المرزباني في *الموشح* طرفًا من أخبار كثير وأشار إلى عدد من سرقاته نسبهما إلى الزبير بن بكار ثم عقب عليهما قائلًا: قال الشيخ أبو عبدالله المرزباني «تحامل الزبير بن بكار على كثير فيما جمعه من أخباره وبين عليه من سرقاته ظاهر، وهو خصم لا يقبل قوله على كثير لهجاء كثير لولد عبدالله بن الزبير وانحراف الزبير عن أهل البيت عليهم السلام.»[٨٥]

---

(٨٠) المرزباني، *الموشح*، ص ٩٦.

(٨١) المرزباني، *الموشح*، ص ٩٦.

(٨٢) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ٢، ص ٧٣٣.

(٨٣) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص ص ١٢٧، ١٢٨.

(٨٤) محمد مصطفى هدارة، *مشكلة السرقات في النقد العربي* (القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م)، ص ص ٧٥ ـ ١٨١.

(٨٥) المرزباني، *الموشح*، ص ١٤٠.

ويرفض إحسان عباس تهمة التحامل التي ذكرها المرزباني، ويعلق عليها قائلاً: فالمرزباني ينسب التحامل إلى الزبير بن بكار في ناحيتين: ناحية الخبر وناحية الكشف عن سرقات كثير، وليست هاتان الناحيتان متساويتين، ولذا كان لابد من الفصل بينهما عند التصدي لمناقشة مثل هذه التهمة المزدوجة. ويرى إحسان عباس أن تخصيص الزبير كتابًا كاملاً للكشف عن إغارة كثير على الشعراء، هو المسؤول عما قد نحسه من إسراف في هذه الناحية، غير أنه يمثل أيضًا صورة من تلك المحاولات الكثيرة التي جعلت النقد العربي منذ القرن الثالث الهجري يهتم اهتمامًا خاصًا بموضوع السرقات الشعرية، وهو موضوع قد تعرض للافتعال أكثر من سائر موضوعات النقد العربي.»

وبعد أن ناقش إحسان عباس خبر المرزباني عن الزبير، انتهى إلى القول: «وأيًا ما كان الأمر فإن تهمة التحامل تسقط من تلقاء ذاتها في هذا الصدد، سواء قبلنا الخبر أو تشككنا فيه أو رفضناه جملة.»(٨٦)

وكُثيّر شأنه في ذلك شأن غيره من كبار شعراء العصر الأموي الذين كانوا موضع اتهام من النقاد والرواة. فالحديث عن السرقات، كان أحد القضايا النقدية التي ظلت تستحوذ على اهتمام النقاد، وقد كانت ظاهرة أدبية معروفة منذ العصر الجاهلي. وقد أظهرت الأمثلة والشواهد السابقة معرفة الشعراء والنقاد والرواة بتلك الظاهرة، لذا أشاروا إليها دون أن يحاولوا تعليلها، أو التعمق في دراستها وتحليلها. والنقاد منذ بداية القرن الثالث الهجري اهتموا بالتأليف في موضوع السرقات، ولعل الزبير حينما ألف كتابه «إغارة كثيّر على الشعراء» كان واقعًا تحت تأثير هذه الظاهرة النقدية التي شاعت في عصره. فمعرفته بشعراء الحجاز وأهله، وإحاطته بأخبارهم وأشعارهم جعلته على معرفة تامة بسرقاتهم. لذا أولى هذا الجانب قدرًا من اهتماماته النقدية. كما أن الأمثلة والشواهد الأخرى التي ساقها المرزباني في *الموشح*(٨٧) والأمثلة والشواهد التي ذكرها أبو الفرج الأصفهاني في مواضع متفرقة من كتاب *الأغاني*،(٨٨) وجميعها منسوبة إلى الزبير، يتهم فيها كثيّرًا بالإغارة على أشعار

---

(٨٦) *ديوان كثيّر عزة*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص ص ٨ - ١٠.

(٨٧) المرزباني، *الموشح*، ص ص ١٣٩، ١٤٠.

(٨٨) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٨، ص ٩٦؛ جـ٩، ص١٣٣؛ جـ٢٠، ص١.

الآخرين، هي أيضًا من نوع التهم التي وجهت إلى غيره من الشعراء، وهي أيضًا من النوع المعروف عند النقاد، وقد سماه ابن رشيق بالاصطراف وعرّفه بقوله: «والاصطراف أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه.»[٨٩] فكثير كما تشير شواهد الزبير قد صرف إلى بعض قصائده بيتًا أو أكثر من شعر غيره، وأضافه إلى شعره. وهذا النوع من السرقات الأدبية في عصر الأمويين كان شائعًا بين الشعراء. وقد عده هدارة ظاهرة متعارفًا عليها بين الشعراء والرواة والنقاد.[٩٠]

أما اتهام الزبير بالتعصب والتحامل على كثيّر فلم يرد إلا عند المرزباني، أما غيره من الرواة فيكادون يجمعون على أنه «كان ثقة ثبتًا عالمًا بالنسب، عارفًا بأخبار المتقدمين وسائر الماضين.»[٩١] ومصنفاته دلت على فضله واطلاعه وقد عده الرواة حجة في أشعار الحجازيين. فالأصفهاني الذي عَوَّلَ كثيرًا على مروياته عند حديثه عن شعراء أهل الحجاز وأنسابهم يعقب على أبيات نسبها الزبير لصخر بن الجعد الخضْرِيّ بقوله: «ومن الناس من يروي هذه الأبيات لجميل، ولم يأت ذلك من وجه يصح، والزبير أعلم بأشعار الحجازيين.»[٩٢]

فعلم الزبير بأشعار الحجازيين جعله يختص بالتأليف عن شعرائهم. ومؤلفه عن كثيّر كان ضمن سبعة عشر كتابًا أحصاها له ابن النديم[٩٣] خاصة لشعراء الحجاز دون غيرهم من شعراء العرب. مما يعني أن الزبير كان معنيًا بالتأليف عن هذه الفئة من الشعراء، الذين كان لهم أثرهم في الحياة السياسية والأدبية في عصرهم. لقد عاش الزبير في تلك الفترة التي شهدت الجمع النهائي للآثار الشعرية. وقد لمس عن قرب وأدرك صنيع الرواة الذين صرفوا جهودهم وعنايتهم لعدد محدود من فحول شعراء البادية، في عصر الأمويين. وكان ذلك

---

(٨٩) القيرواني، *العمدة*، جـ٢، ص ١٨١.

(٩٠) هدارة، *مشكلة السرقات*، ص ٢٨.

(٩١) انظر تفاصيل ذلك في المقدمة التي كتبها محمود شاكر في جمهرة *نسب قريش وأخبارها*، ص ص ٥٥ ـ ٥٧.

(٩٢) الأصفهاني، *الأغاني*، تحقيق علي السباعي وآخرين (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، جـ٢٢، ص ٣٠.

(٩٣) ابن النديم، *الفهرست*، ص ١٦٠.

على حساب الكثرة من شعراء الحواضر الإسلامية. إن اتهام المرزباني للزبير بالتحامل والتعصب على كثيّر يبقى موضع تساؤل ونظر ما دام أن شهرة الزبير تحققت بفضل تعدد مؤلفاته وتنوعها. لقد كان باعتراف الرواة عالمًا من أوعية العلم، وكان مع ذلك يتمتع بحس أدبي كان موضع تقدير الكثير من الرواة الذين أشادوا بمنزلته ونفاذ بصيرته. وفي الوقت الذي كتب فيه الزبير مؤلفه «إغارة كثيّر على الشعراء» كان الحديث عن السرقات قد استأثر باهتمام بعض الرواة بسبب الصراع الذي كان قائمًا بين أنصار المحدث والقديم. فأنصار القديم وجدوا في الحديث عن السرقات مجالاً رحْبًا ينفذون منه للطعن على المحدثين وكان يأتي على رأس هؤلاء رواة الشعر وعلمائه، الذين ناصروا الشعر القديم وتعصبوا له وجعلوه مثلاً يُحتذىٰ. وإذا كان فريق من الرواة قد أجهدوا أنفسهم في الكشف عن سرقات الشعراء فلأنهم عدّوا ذلك مظهرًا لإظهار المهارة والبراعة في الشعر.

والمرزباني اتهم الزبير بالتحامل على كثيّر وجعله خصمًا لا يقبل قوله فيه وذلك بسبب ما جمعه من أخباره وبين عليه من سرقاته. فالمرزباني يشير بهذا إلى كِتَابَيْ الزبير عن كثيّر وهما (أخبار كثيّر)، و(إغارة كثيّر على الشعراء).

ومع أن هذين الكتابَيْن غير معروفَيْن الآن، إلا أن ما جمعه الأصفهاني فيما نقله في كتاب *الأغاني* من أخبار الشاعر، وما ذكره المرزباني في كتاب *الموشح* من أخبار الشاعر أيضًا يدل على أهمية هذين الكتابَيْن ويكشف جهد الزبير وأثره في المصادر المؤلفة بعد عصره.

وباستعراض الأخبار والروايات التي ذكرها المرزباني في كتاب *الموشح* ونسبها إلى الزبير، يمكن للباحث تصنيفها إلى نوعين:

- أخبار عامة.
- وأخرى اتهم الزبير كثيّرًا فيها بالسرقة والاصطراف.

وبالنظر إلى الأخبار العامة نلاحظ أن الزبير حينما ساق أخباره عن كثيّر عمد إلى ذكر رواته ورجال سنده. فهو حينما يحدث بخبر، يذكر بسند متصل رواة ذلك الخبر، فهو بهذا يعتمد على سلسلة من الرواة حدثوه بتلك الأخبار. ومن بين هؤلاء الرواة الذين نقل عنهم الزبير أخبار كثيّر، عبدالله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر.(٩٤) وقد عرف عن

(٩٤) المرزباني، *الموشح*، ص ص ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠.

عبدالله هذا اهتمامه بإملاء شعر كثيّر والتكسب به.(٩٥)

فالزبير يتعامل مع أخبار كثيّر بطريقة لا تختلف عن غيره من شعراء العربية، الذين اهتم الزبير بنقل أخبارهم. ولم يظهر على رواياته عن كثيّر ما يفيد تحامله عليه. وإنما كان موقفه منه موقف الراوية الذي ينقل عن غيره. ولو فرض أن هذه الأخبار التي جاء بها الزبير عن كثير، غير صحيحة أو مبالغ فيها، فلماذا نحمل الزبير تبعتها، ونتهمه بالتعصب والتحامل على كثير ونغفل رجال السند الذين أخذ عنهم الزبير مثل هذه الأخبار؟

أما الصنف الآخر من شواهد الزبير التي خصها للحديث عن سرقات كثيّر، فهي أمثلة لها نظائر كثيرة عند غيره من الشعراء، وهي من السرقات الشائعة بين الشعراء والمعروفة بالاصطراف. والاصطراف يقع من الشعر على نوعين: أحدهما الاجتلاب وهو الاستلحاق أيضًا. وقد مثل له ابن رشيق بقوله: وربما اجتلب الشاعر البيتين على جهة المثل، فلا يكون في ذلك بأس، كما قال عمرو ذو الطوق:

صَددتِ الكأس عنا أمَّ عمروٍ ... وكان الكأسُ مجراها اليمينا

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو ... بصاحِبك الذي لا تصْبَحِينا

فاستلحقهما عمرو بن كلثوم التغلبي، فهما في قصيدته، وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيبًا. وقد يصنع المحدثون مثل هذا.

قال زياد الأعجم:

أشمُّ إذا ما جئتَ للعرف طالبًا ... حباك بها تحوي عليه أناملُهْ

ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سَائِلُه

ويروي هذا لأخت يزيد بن الطثرية، واستلحق البيت الأخير أبو تمام فهو في شعره.(٩٦)

وعن سرقات كثيّر، ذكر المرزباني ثلاثة أمثلة نسبها إلى الزبير،(٩٧) أحدها لا يختلف عن المثال السابق الذي عدّه ابن رشيق اجتلابًا وأجازه أبو عمرو بن العلاء وغيره من علماء العربية. يقول الخبر: «حدثني محمد بن أحمد قال حدثنا أحمد بن يحيى النحوي عن

---

(٩٥) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص ٥.

(٩٦) القيرواني، *العمدة*، جـ٢، ص ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٩٧) المرزباني، *الموشح*، ص ص ١٣٩، ١٤٠.

الزبير بن بكار قال: حدثني من له علم وثبت من قريش فيهم عمي مصعب بن عبدالله عن جدي عبدالله بن مصعب أن قول جميل:

أفق فقد أفاق العاشقون وفارقوا الهوى واستمرت بالرجال المرائر
وهبها كشيء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غيبته المقابر

وهما في قصيدته التي يقول فيها:

أألحق أن دار الرباب تباعدت أو أن شط ولي أن قلبك طائر

فأغار كثيّر على البيتين فأدخلهما في قصيدته التي أولها:

عفا واسط من أهله والظواهر . . . . . »

وحدث الزبير برواية أخرى فقال: من أغزل أبيات قالتها العرب أبيات حسان بن يسار التغلبي وذكر من بينها البيتين السابقين.

هذه الرواية وغيرها أظهرت أن دور الزبير كان يقتصر على نقل الخبر من مصادره. فالبيتان كما نلاحظ اضطربت نسبتهما في المصادر. فهما مرة ينسبان إلى جميل وأخرى إلى حسان بن يسار التغلبي. والبيتان أيضًا وردا ضمن قصيدة تنسب لعمر بن أبي ربيعة.[٩٨] وذكر الأصفهاني البيتين مع أبيات أخر ونسبها لعمر بن أبي ربيعة وعقب عليها قائلاً: «هذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثيّر، ويرويها الكوفيون للكميت بن معروف الأسدي، وذكر بعضها الزبير بن بكار عن أبي عبيدة لكثيّر في أخباره.»[٩٩]

والمثال الثاني الذي ساقه المرزباني منسوبًا إلى الزبير، وعده من سرقات كثيّر أطلق عليه ابن رشيق الاهتدام يقول الخبر: «حدثني محمد بن أحمد الكاتب قال حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب عن الزبير بن بكار قال: حدثني محمد بن يحيى عن محمد بن الربيع بن أبي جهمة الجندعي أن أباه مر على كثيّر بالروحاء وهو ينشد:

وكنتُ كذي رجلين رِجْلٍ صَحِيحةٍ ورِجْلٍ رمي فيها الزَّمانُ فشلَّت

فقال له: ويحك يا ابن أبي جمعة، مذ متى قيل هذا الشعر؟ قال: منذ زمان طويل. قال: فهذا يقوله صاحبنا أمية بن الأسكر. قال: هو ذاك يا ابن أبي جهمة، أنا أحظى به منه.»

---

(٩٨) *ديوان عمر بن أبي ربيعة*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣ (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م)، ص ص ١٠٩، ١١٠.

(٩٩) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ١٢٤.

وسواء أصح أن كُثيّرًا صرف هذا البيت من شعر أمية بن الأسكر كما ذكرت الرواية، أو أنه مهتدم من قول النجاشي:

وكنتُ كذي رِجلين رِجْلٍ صَحِيحةٍ ورِجْـلٍ رَمَتْ فيهـا يَدُ الحدَثان

فقد ذكر ابن رشيق أن كثيّرًا أخذ القسم الأول واهتدم باقي البيت فجاء بالمعنى في غير اللفظ فقال:

..... ورِجْلٍ رمي فيها الزَّمانُ فشلَّت[١٠٠]

ونسبة ابن رشيق البيت إلى النجاشي تبعد تهمة التحامل التي وجهها المرزباني إلى الزبير. فقد أظهرت هذه الرواية أن البيت ينسب لأكثر من شاعر يسبقان عصر كثيّر بزمن.

وشاهد الزبير الثالث الذي ذكره المرزباني جاء نصه كما يلي: «حدثني محمد بن أحمد الكاتب قال حدثنا أحمد بن يحيى عن الزبير بن بكار قال: كتب إلى إسحاق بن إبراهيم حدثني الأصمعي عن عبدالرحمن بن أبي الزناد قال: مر أعرابي بكثيّر وهو ينشد:

أود لكـم خيرًا وتـطرحـونـني أسعد بن ليث لاختلاف الصنائع

ويروى: «وتتهموني أكعب بن عمرو» فنادى: عباد الله هذا والله شعري قتله. فقال كُثيّر: «إن يكن لك فما نفعك، وإن لا يكن لك فهو أبعد لك منه.»

ويلاحظ أن المصادر العربية التي نسبت البيت لكثير، اختلفت روايتها في اسم القبيلة التي خاطبها الشاعر. فهي عند المرزباني[١٠١] «سعد بن ليث،» وعند البحتري[١٠٢] «الحارث بن كعب،» وعند ابن منقذ[١٠٣] «كعب بن عمرو،» وهذه خزاعة قبيلة الشاعر. فهل اختلاف الرواة في اسم القبيلة مرده اضطراب نسبة البيت لأكثر من شاعر؟ ربما. وبالنظر إلى رواة الزبير الذين نقل عنهم الخبر نلاحظ أنهم ثلاثة نفر: هم إسحاق بن إبراهيم

---

(١٠٠) القيرواني، *العمدة*، جـ٢، ص ٢٨٧.

(١٠١) المرزباني، *الموشح*، ص ١٣٩.

(١٠٢) الوليد بن عبيد البحتري، *حماسة البحتري*، تحقيق لويس شيخو، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص٢٤٢.

(١٠٣) أسامة بن منقذ، *لباب الآداب*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار الكتب السلفية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٣٨٨.

الموصلي،[١٠٤] والأصمعي،[١٠٥] وعبدالرحمن بن أبي الزناد.[١٠٦] فالموصلي والأصمعي عالمان مشهود لهما بسعة الرواية، ومعرفة الشعر القديم، وهما من ثقاة الرواة؛ أما ابن أبي الزناد فقد كان فقيهًا محدثًا، اختلف الرواة حوله وعد بعضهم حديثه بالمدينة أصح مما حدث به ببغداد. فالزبير كما يظهر من الرواية اعتمد في نقل خبره على ثلاثة نفر، وإذا كان هناك من تهمة توجه إلى أحد، فقد توجه إلى أحد رواته الذين نقل عنهم الخبر.

والمرزباني اتهم الزبير بالتحامل على كثير وجعله خصمًا له. وأخباره عنه لا تختلف من حيث السند والتوثيق عن أخباره الأخرى لمجموعة كبيرة من شعراء العربية. ولم نجد أحدًا من الرواة يتهم الزبير بالتعصب أو التحامل على أي شاعر، بل الكل يجمع على أنه كان ثقة ثبتًا. أما رواياته فقد كانت مصدرًا يعول عليه في نقل الأخبار. ولذا قلّ أن يخلو أي مصدر أدبي أو تاريخي أو جغرافي من رواية أو أكثر للزبير، مما يؤكد أهمية مرويات الزبير وأثرها في المصادر المؤلفة بعد عصره.

أما خصومة الزبير لكثيّر لهجائه ولد عبدالله بن الزبير وانحراف الزبير عن أهل البيت عليهم السلام. فيمكن الرد عليها من خلال مرويات الزبير عن كثير في كتاب *الأغاني*.[١٠٧] فجل اعتماد أبي الفرج فيما نقله من أخبار الشاعر كان روايات الزبير رواها بأسانيد متصلة لأناس عاصروا كثيّرًا وكانت لهم صلة خاصة به. ومن هؤلاء بنتا كثيّر ليلى وجمعة، وأحفاده من ولد جمعة بنت كثيّر، وعن غلام كان مولى لكثيّر.[١٠٨] كما رويت أخباره عن طريق عبدالله بن أبي عبيدة الذي كان يملي شعر كثيّر ويتكسب به.[١٠٩] كما حدث بروايات عن إبراهيم بن سعد وهو من المعجبين بشعر كثيّر. وصفه الزبير فقال: كنّا نأتي إبراهيم بن سعد

---

(١٠٤) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، *إنباه الرواة على أنباه النحاة*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، جـ١، ص ص ٢٥٠، ٢٥٤.

(١٠٥) القفطي، *إنباه الرواة*، جـ٢، ص ص ١٩٧ ـ ٢٠٥.

(١٠٦) الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، جـ١٠، ص ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

(١٠٧) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص ص ٣ ـ ٣٩.

(١٠٨) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص ص ٣، ٦، ١١، ٢٥، ٢٦، ٢٨.

(١٠٩) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص ص ٥، ٩، ١٠.

وهو خبيث النفس، فنسأله عن شعر كثيّر، فتطيب نفسه ويحدثنا. ومن الأخبار التي حدث بها إبراهيم بن سعد ونقلها الزبير هذا الخبر: قال «إني لأروي لكثيّر ثلاثين قصيدة لو رقى بها مجنون لأفاق.»(١١٠) فنقل مثل هذا الخبر من قبل الزبير ينفي عنه تهمة التعصب التي ذكرها المرزباني خصوصًا وأن هذا الخبر لم يرد إلا عن طريق الزبير، ولو كان الزبير يتحامل على كثير لما ساق مثل هذا الخبر الذي يصور إعجاب إبراهيم بن سعد بشعر كثيّر. أما خصومة آل الزبير لكثيّر، فلم يقل بها إلا المرزباني حسب علم الباحث؛ أما الزبيرون فقد كانوا يقدمون كُثيّرًا ويعدونه أشعر شعراء عصره. يروي الزبير عن عمه فيقول: سئل عمي مصعب: من أشعر الناس؟ فقال: كثيّر بن أبي جمعة. وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم (يعني الشعراء) ولم يدرك أحد في مديح الملوك ما أدرك كثيّر.(١١١)

ويعقب إحسان عباس على هذا قائلاً: «وهذا يدل على أن بعض الزبيريين كانوا يقيمون حدًّا فاصلاً بين التقدير للشعر والعلاقات الشخصية التي نقدر أنها أصبحت باهتة بعد عشرات السنين.(١١٢)

وبجانب اهتمام الزبير بتوثيق النصوص والمفاضلة بين الشعراء وحديثه عن السرقات، اهتم بقضايا نقدية أخرى، قد لا ترتقي أهميتها إلى مستوى القضايا السابقة ومن ذلك حديثه عن:

**العوامل البيئية وأثرها في الشعر والشعراء**

كانت بيئة الشعر في الجاهلية متنقلة غير مستقرة وكان الشعر حظًّا مقسومًا بين قبائل العرب أيضًا. ولهذا ربط بعض النقاد بين ظاهرة قلة الشعر في بعض القبائل بأسبابها البيئية

---

(١١٠) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص ٢٨.

(١١١) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٩، ص ٥.

(١١٢) *ديوان كثير*، حاشية، ص ٩.

وعللها بظرفها الاجتماعي . فابن سلام[١١٣] يرجع قلة الشعر القرشي في العصر الجاهلي إلى الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في بيئة مكة موطن القرشيين ، فمكة في العصر الجاهلي لم تعرف الخصومات القبلية التي عرفتها القبائل الأخرى ، ولذا قلّ فيها الشعر . فلما جاء الإسلام بدأت المنازعات ، وتطورت الخصومة إلى قتال ، فتحركت الشاعرية القرشية ونشطت ، فقد ثارت عواطف القرشيين ونشطت شاعريتهم بسبب المنازعات والحروب التي عرفتها مكة في العهد النبوي . وفي العصر الأموي كان للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثر على نهضة الشعر القرشي ، وعرفت مكة بلون من الشعر نما وازدهر فيها ، ألا وهو الغزل الحضري الذي غلب على هذه البيئة واستبد بطاقات شعرائها ، وقد حمل لواءه عمر بن أبي ربيعة ، ثم سار على دربه عدد آخر من شعراء مكة من أمثال العرجي ، وأبي دهبل ، والحارث بن خالد المخزومي ، وعبدالله بن قيس الرقيات . وقد شهدت مكة في القرن الأول الهجري نشاطًا أدبيًا ممتازًا لم تعرفة من قبل . ويجمع الدارسون على أن التاريخ الأدبي للحجاز محصور في هذا القرن مقصور عليه ، لم يتجاوزه إلى ما قبل أو بعد .[١١٤] وقد لفتت هذه الظاهرة علماء الأدب ورواة الشعر المتقدمين ، فأقروا لقريش بالشاعرية وأعجبوا بشعرها . فقد أصبح لمكة شخصية قوية التأثير في الفن العربي . وقد تلون شعرها بلون حياتها الاجتماعية فاصطنع شعراؤها الغزل واتخذوه أداة تعبيرهم الأدبي ولمعت أسماء من بين شعراء مكة في عصر الأمويين .

---

(١١٣) يقول ابن سلام في هذا المعنى : «وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ، ولم يحاربوا . وذلك الذي قلل شعر عمان ، وأهل الطائف في طرف . » الجمحي ، *طبقات فحول الشعراء* ، جـ١ ، ص٢٥٩ .

ويخالف الجاحظ هذا الرأي فيقول : «وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكرًا كلها ـ ومع ذلك لم تر قبيلة قط أقل شعرًا منهم . » الجاحظ ، *الحيوان* ، جـ٤ ، ص٣٨٠ .

(١١٤) انظر على سبيل المثال : طه حسين ، *حديث الأربعاء* ، ط٨ (القاهرة : دار المعارف ، د . ت . ) ، جـ١ ، ص٢٩٦ وما بعدها ؛ وفي *تاريخ النقد والمذاهب الأدبية* ، محمد طه الحاجري (بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٢م) ، ص٧٢ .

وقد سجل الزبير بن بكار هذه المكانة التي احتلها الشعر القرشي من نفوس العرب فقال: كانت العرب تفضل قريشًا في كل شيء إلا الشعر، فلما نجم في قريش عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد المخزومي، والعرجي، وأبو دهبل، وعبدالله بن قيس الرقيات، أقرت لها العرب بالشعر أيضًا.(١١٥)

وخبر الزبير يدل على إعجابه بالشعر القرشي واحتفائه بشعرائهم. وهذا الإعجاب لم يكن صادرًا عن استجابة عاطفية لكونه قرشيًّا. وإنما صدر عن وعي وإدراك لما في هذا الشعر من جمال وروعة جعلاه محل تقدير العرب من غير القرشيين. فالزبير باعتراف الرواة «أعلم الناس بأشعار الحجازيين،»(١١٦) وهو مع عمه المصعب، «أعلم الناس بأخبار القرشيين أيضًا،»(١١٧) هذا العلم وتلك الدراية جعلا مروياته عن الشعر الحجازي عامة والقرشي خاصة لا تخلو من نقد ذاتي ضمنه الزبير لمروياته عن الشعراء، أشار فيه إلى سقطات الشعراء، فقد عد الزبير غموض المعنى عيبًا في الشعر. ومن هذا القبيل نقده لبيت عبدالله بن قيس الرقيات:

تَقدَّتْ بي الشَّهْبَاءُ نحو ابن جَعْفَرٍ سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها

فقد عقب عليه قائلاً: «وهذا البيت مما عيب فيه على ابن قيس، لأنه نقض صدره بعجزه، فقال في أوله: إنه سار سيراً بغير عجل ثم قال: سواء عليها ليلها ونهارها وهذا غاية للدأب في السير، فناقض معناه في بيت واحد.»(١١٨)

وعاب على أبي دهبل الجمحي سوء استعماله للمعنى، فحينما مدح أبودهبل المغيرة بن عبدالله بن خالد بن حزام أساء لناقته التي حملته إليه فقال:

---

(١١٥) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢، ص ٣١٣.

(١١٦) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٢٢، ص ٣٠.

(١١٧) ابن عبدالبر، *الاستيعاب*، جـ٤، ص ١٦٢٣؛ تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق محمود الطناحي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، جـ٨، ص٣٥.

(١١٨) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٥، ص ص ٨٦ ـ ٨٧. ومعنى «تقدّت» أي سارت سيراً ليس بعجل ولا مبطىء، فيقال: تقدى فلان إذا سار سير من لا يخاف فوت مقصده فلم يعجل.

يا ناق سِيري واشْرَقِي بدم إذا جئت المغيرة[١١٩]

وقد ساق ابن رشيق هذا البيت في باب السرقات وما شاكلها، وهو عنده مما قصر فيه الأخذ عن المأخوذ منه.[١٢٠]

ونبه على أغاليط الشعراء فعاب ابن قيس الرقيات واعتبره خارجًا على القاعدة الصرفية، مخالفًا للمقاييس اللغوية التي تعد شرطًا لصحة الكلام، الذي هو أيضًا شرط أساسي للجمال الفني والصحة الأدبية، فقد عقب على بيت ابن الرقيات:

ما مَرَّ يومٌ إلا وعندهما لحم رجال أو يَوْلغان دما

فقال: وكان قد قال في قصيدته هذه: «أو يالغان دمًا» بالألف وكذلك روى عنه، ثم غيرته الرواة.[١٢١]

تلك هي أهم القضايا النقدية التي عرض لها الزبير من خلال مروياته عن الشعر والشعراء، وهي كما لاحظنا قضايا كانت تعد من أكثر القضايا الأدبية التي شغلت النقاد قبل عصره وبعده. وتبدو أهمية هذه الملاحظات النقدية حينما نذكر أن الزبير كان من أكثر الرواة عناية بتاريخ الشعر في القرنين الأول والثاني للهجرة.

كما أنه يعد من أكثر الأخباريين الذين أسهموا بقدر وافر في الحديث عن شعراء الحجاز وتتبع المعلومات التفصيلية عن شعرائه. هذه الإحاطة بأخبار الشعراء جعلت مروياته الكثيرة التي لا يخلو منها أي مصدر أدبي أو تاريخي تتضمن ملاحظات نقدية ذكية، جعلت المؤلفين بعد عصره يهتمون بها من خلال استشهادهم بالكثير منها، وقد تقدمت الإشارة إلى بعضها، من خلال مرويات أبي الفرج في كتاب *الأغاني* ومن قبله المرزباني في كتاب *الموشح*.

هذه الملاحظات تناولت آثارًا أدبية مشهورة، لم تكن شهرتها ووصولها عن طريق رواة كبار، سببًا يجعل الزبير يمتنع عن التثبت من تحقيق صحتها. كما فاضلت بين شعراء

(١١٩) المرزباني، *الموشح*، ص ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١٢٠) القيرواني، *العمدة*، جـ٢، ص ٢٩٢.

(١٢١) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ٥، ص ص ٨٧ ـ ٨٨. وجاء في *تهذيب اللغة*، قال الليث: «الولغ» شرب السباع بألسنتها، وبعض العرب يقول: «يالغ» أرادوا بيان الواو فجعلوا مكانها ألفًا واستشهد على ذلك ببيت ابن الرقيات. محمد بن أحمد الأزهري، *تهذيب اللغة*، تحقيق عبدالعظيم محمود (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.)، جـ٨، ص١١٩.

يمثلون تيارات مختلفة. وكان لهم باع وأثر في نهضة الشعر خلال القرن الأول الهجري. وقد أظهر الزبير استقلالية في الرأي عند حكمه على أشهر شعراء قريش في فجر الدعوة، وهما عبدالله بن الزبعري وضرار بن الخطاب، وعلى أعظم شاعرين في الغزل عرفهما الحجاز، وهما عمر بن أبي ربيعة، وجميل بن معمر.

هذه الحالات وإن كانت قليلة لا تساوي شيئًا بالنسبة لرواياته الكثيرة، إلا أنها مع ذلك تستحق الثناء لأنها أظهرت مقدار العناية والدقة التي كان يوليها الزبير لمروياته.

## منهج الزبير في النقد

أظهرت الصفحات الماضية عناية الزبير بشعر أهل الحجاز في القرن الأول الهجري. فقد ألّف الكثير من الكتب في سير الشعراء وأخبارهم، وكان مصدرًا لكثير من أشعارهم، جعلت الرواة بعد عصره يشيدون بعلمه ودرايته. فقد كان باعتراف الرواة «أعلم الناس بأشعار أهل الحجاز وأدرى بأخبارهم.»[١٢٢] ومع ذلك ظلت مشاركته في النقد محدودة، فلم يهتم به قدر اهتمامه بالحديث عن تاريخ حركة الشعر ذاته. فقد أرخ الزبير لمشاهير شعراء الحجاز وغيرهم من شعراء العربية. وأخباره عن الشعراء في كتب التراجم والطبقات تضمنت نتفًا من الأخبار تتعلق بالشاعر وحياته، وخلقه وعلاقته مع أناس أو خصوم معروفين. بجانب تفرده برواية أشعار لا نكاد نجدها عند غيره من الرواة.[١٢٣]

ولم يقتصر اهتمام الزبير على التعريف بالآثار الشعرية، بل قدم لنا من خلال مروياته الكثيرة في مختلف المصادر، صورًا مختلفة لطبيعة النقد قبل عصره. وهي خلافًا لما يمكن أن نظن ذات قيمة كبرى في التاريخ الأدبي، لأنها كشفت للدارسين عن جزء مهم من تاريخ النقد العربي قبل تدوينه.

---

(١٢٢) انظر: ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ص ٣٦.

(١٢٣) ليس بوسع الباحث في هذه المقالة استقصاء النتف والمقطعات والقصائد التي انفرد الزبير بروايتها، ونظرًا لكثرتها وتعدد شواهدها سأقتصر على ضرب أمثلة من: *ديوان حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره*، دراسة وتحقيق علي سليمان جمال (القاهرة: مطبعة المدني، د.ت.)، انظر: تخريج المقطعات والقصائد التي تحمل الأرقام ٦١، ٧٧، ٨٧، ٨٩، فقد انفرد الزبير بروايتها دون غيره من سائر الرواة مما يؤكد أهمية مرويات الزبير.

كما أن الزبير قد ألّف كتابًا عرض فيه لبعض القضايا النقدية وهو كتابه «إغارة كثيّر على الشعراء» هذا الكتاب شأنه شأن معظم مؤلفاته عن أخبار الشعراء قد ضاع ولا يعرف عنه غير عنوانه. إلا أن تراجم شعراء القرنين الأول والثاني للهجرة في كتاب مثل كتاب *الأغاني* تشكل فيها روايات الزبير قدرًا لا يستهان به، وأهميتها لا تقتصر على هذا فحسب، بل تبدو من خلال احتوائها على معلومات ذات طبيعة نقدية. فالزبير لم يخلف كتابًا معدودًا في النقد، ومع ذلك يمكن للباحث أن يقف على منهجه النقدي من خلال نظرات مبثوثة في تضاعيف رواياته الكثيرة. لذا سأقتصر على تحليل أهم القضايا التي أثارها الزبير وتعرضنا لمناقشتها في الصفحات الماضية. وهي قضايا تعد من أبرز القضايا التي عالجها النقد في عصره. ومن أهمها:

**توثيق النصوص**

لم يقتصر دور الزبير على جمع النصوص الشعرية، وترتيب أبيات القصيدة. بل عني أيضًا بتحقيق صحة النص، كما عني أيضًا بنسبة الأثر إلى صاحبه. إن نظرة في *ديوان حاتم* المطبوع ومقارنة ما ورد به من أشعار وأخبار، بما ذكره الزبير عن الشاعر نفسه في كتابه *الموفقيات* تكشف بجلاء أن دور الزبير لم يقتصر على جمع الشعر وتدوين الأخبار، بل تناولها بالنقد فرفض بعضها لأنه لم يجد فيها ما يوجب التصديق بها. فهي تخالف الواقع وهي إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقيقة. لقد رفض الزبير الأشعار المرتبطة بخبر أبي الخيبري، وعلل رفضه لها بقوله: «إنها تعبر عن أمور خارقة لا تكاد النفس تصدق بها.» فمن غير المعقول أن يرى أبو الخَيْبَريّ ـ وهو نائم ـ حاتمًا وقد خرج من قبره فيعقر له ناقته جزاء سخريته منه وشكه في جوده وسخائه. ومن المحال أيضًا أن ينظم شاعر بعد موته أشعارًا يحفظها ابنه منه ويرويها لأبي الخَيْبَريّ وركبه. إن الهدف من هذه الأسطورة إثبات جود حاتم حيًّا وميتًا. لقد رفض الزبير الخبر وما يرتبط به من أشعار، وعلل رفضه له بقوله: «وأحسب أمر حاتم حيلة من ورثته ونسبوه إليه.» ويكفي أن راوي هذا الشعر هو عدي بن حاتم، وتعصب القبائل لشعرائها وتزيدها في أخبارهم شائع عند العرب. وقد سبق لابن سلام أن جعله أحد الأسباب التي أدت إلى انتحال الشعر في العصر الجاهلي.

لقد كانت الرواية الأدبية غاية أخلص لها الزبير فقد ظل أكثر من ستين عامًا يحدث ويحمل عنه العلم. وكان النقد يأتي عنده امتدادًا لنشاطه الفكري والثقافي. فقد تعامل مع النصوص المصاحبة للأخبار تعاملاً كشف عن فطنته وعن اهتمامه بتوثيق النص. وقد مكّنه من ذلك معرفته بخصائص العصور الأدبية المختلفة. فشعر حاتم في العصر الجاهلي عرف التزوير والانتحال لأسباب قبلية. أما الشعر في العصر الأموي، فقد عبث به أهل الأهواء السياسية حين اتخذت الأجيال اللاحقة من الأحداث السابقة التي شهدها فجر الدعوة مظهرًا من مظاهر الصراع ظهر أثره في الشعر. وما القصيدتان المنسوبتان إلى قتيلة بنت النضر وإلى عبدالله بن الزبعري إلا وجهان لعملة واحدة. فكلاهما كما ذكر الزبير «صنعا بعد أن ذهب من الإسلام صدر.» ولا صلة لهما بالأحداث التي تنسب إليهما، وغالبًا ما يكون قائلهما قد عاش في فترة تالية لأحداث تلك الفترة الأولى، وربما بعد انقراض أكثر من جيل ممن عايش تلك الأحداث وعاصرها. والخبر المصاحب للقصيدة المنسوبة لابن الزبعري والذي فصله الأصفهاني في كتاب *الأغاني*[١٢٤] يسند له عن الزبير كشف أن القصيدة محمولة على ابن الزبعري وأنها لأبي نهشل نحلها ابن الزبعري. إن شهرة القصيدتين ورواية المصادر المتقدمة لهما، لم تمنع الزبير من النظر فيهما والتثبت من صحة نسبتهما. فعلم الزبير بأشعار القرشيين وخبرته ودربته ورجوعه إلى أهل العلم بالشعر أتاحت له الحكم عليهما والتحري من صحتهما فعقب على قصيدة قتيلة بقوله: «وقد سمعت بعض أهل العلم يغمز أبياتها هذه ويذكر أنها مصنوعة.» وعقب على قصيدة ابن الزبعري بقوله: «وهي تغمز.» ثم حدث بسند «أنها مصنوعة» صنعت «بعد أن ذهب من الإسلام صدر.»

لقد عبر الزبير عن شكه في صحة النسبة بقوله: «وهي تغمز» والغمز والطعن والمغموز المتهم هكذا ورد في *الصحاح*.[١٢٥] أما الشعر المصنوع فهذا المصطلح ورد عند ابن سلام ثلاث مرات في كتاب *طبقات فحول الشعراء*.[١٢٦] وقد عقب محقق الكتاب محمود شاكر على عبارة ابن سلام: «وفي الشعر مصنوع مفتعل كثير لا خير فيه» بقوله: «ولا أدري ما

---

(١٢٤) انظر: ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ص ١٧ وحاشية ٥٤.

(١٢٥) إسماعيل بن حماد الجوهري، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، مادة غمز، جـ٣، ص٨٨٩.

(١٢٦) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص ص ٤، ٧، ٦١.

يريد به ابن سلام، أيريد ما صنعته القبائل، أو بعض الكذابين، أم يريد أنه محمول على الشاعر، وهو من عمل شاعر غيره.» وعبارة الزبير توحي بالعبارة الأخيرة. فقد صرح أن قصيدة ابن الزبعري هي لأبي نهشل حملها على ابن الزبعري.

وفي توثيقه للقصيدتين اعتمد الزبير على الجانب التاريخي، وعلى العصبية القبلية، كما اعتمد على تمحيص الرواة. ونقصد بالجانب التاريخي والعصبية القبلية ما حدث لقريش بعد ظهور الإسلام. فقد انقسم القرشيون على أنفسهم، فريق مع الرسول ﷺ وآخر ضده. ولم يكن الخلاف خلافًا في الرأي وحده، بل تحول إلى صراع دموي قتل بسببه الكثير من الطرفين. وقد وقف أهل المدينة من الأنصار في صف الرسول عليه السلام وهم ليسوا من قومه فحاربوا القرشيين، وظلت الحرب سجالاً بينهما حتى أذن الله بفتح مكة ودخلت قريش في الإسلام. وأثناء سنوات الصراع حدث ملاحاة وهجاء بين شعراء قريش وشعراء النبي ﷺ. ومع حزم عمر وحرصه على وحدة المسلمين، وكرهه للعصبية الجاهلية التي استمر أثرها بين الناس، وعند الشعراء خاصة، حيث بقي في نفوس فئة من قريش وغيرها بقايا جاهلية. فهم لا يريدون أن ينسوا ما قاله حسان بن ثابت ــ أو سواه ــ وما نالهم منه. وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه ومجيء الأمويين إلى الحكم: «تعاضهت قري واستبت،» فنظموا قدرًا غير قليل من الشعر نسبوه إلى الأحداث الأولى وإلى شعراء لم يدركوا صراعات القرشيين الأخيرة. وقد حدث هذا بسبب المنازعات الشخصية التي حدثت بين القرشيين أنفسهم وبينهم وبين مناوئيهم من الأجيال المتأخرة من أبناء الأنصار، وفي نقده للآثار الشعرية لم يقتصر الزبير على حاسته الفنية، وعلى علمه ودرايته بأشعار القرشيين، بل استعان برأي فريق من العلماء وبواسطتهما استطاع أن يكشف عن شخصية القائل للقصيدة المنسوبة لابن الزبعري. أما القصيدة الأخرى المنسوبة لقتيلة بن النضر فلم ينسبها إلى مؤلف بعينه ـ والزبير شأنه في ذلك شأن غيره من العلماء في عصره الذين صرحوا بشكهم في بعض نصوص الشعر القرشي، وبعدم قدرتهم على تمييز بعض الأشعار الصحيحة التي قيلت في مناسبات سابقة لعصرهم، من المحمولة التي صنعت وأضيفت في عصور لاحقة. فابن إسحاق أورد قصيدة أبي طالب في مدح النبي ﷺ، فذكر ابن هشام منها أربعة وتسعين بيتًا، ثم قال: «هذا ما صح لي من هذه القصيدة!! وبعض أهل العلم بالشعر ينكر

أكثرها.»[١٢٧] كما عرض لها ابن سلام، وعقب عليها قائلاً: «وقد زيد فيها وطولت» ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة: وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ولا أدري أين منتهاها؟ وسألني الأصمعي عنها فقلت صحيحة جيدة! قال: أتدري أين منتهاها؟ قلت: لا! وأشعار قريش فيها لين فتشكل بعض الأشكال.»[١٢٨]

إن الفقرة الأخيرة من عبارة ابن سلام تؤكد أن الشعر المحمول لا يختلف أحيانًا من حيث الجودة والمستوى الفني عن الشعر الصحيح الذي صدر عن الشاعر. ولهذا لم يستطع العلماء الذين أخذوا على أنفسهم تصفية التراث العربي وتنقيحه مما علق به، تمييز الشعر الصحيح من المحمول الذي أضيف في عصور لاحقة.

والإشكال كما يظهر من عبارة ابن سلام يعود إلى سمة خاصة من سمات الشعر القرشي وهي «اللين» ولعل هذا هو السبب الذي جعل الزبير لا يهتدي لقائل القصيدة المنسوبة إلى قتيلة مع علمه بأنها محمولة عليها.

### المفاضلة بين الشعراء

عند المفاضلة لم يلتزم الزبير بمنهج واحد فهو أحيانًا يفاضل بين نتاج شاعر وآخر، وأحيانًا يقتصر على تفضيل قصيدة لشاعر دون سواها. ونقده لم يقتصر على إصدار أحكام جزئية تتناول البيت أو الأبيات، بل تجاوز ذلك إلى الحكم على قصيدة للشاعر بكاملها. إلا أن أحكامه عليها تأتي أحيانًا خالية من التحليل والتعليل.

فقصيدة النصيب «بزينب أَلِمْ قبل أن يرحل الركب» هذه القصيدة هي عنده أجود ما قال: والزبير وإن حكم بجودتها معتمدًا في ذلك على ذوقه وخبرته وعلمه بأشعار أهل الحجاز، إلا أن حكمه يظل انطباعًا شخصيًّا محضًا. فهو لم يفسر معايير الجودة في تلك القصيدة، ولم يلتمس أسبابًا محددة لاستحسانه، وهذا قصور يجعل متذوق الأدب لا يقتنع بهذا الحكم المرسل الذي كان شائعًا في عصور الأدب الأولى. وأحيانًا نلاحظ أنه يفاضل بين قصيدة أو أكثر لشاعرين يمثلان تيارين مختلفين، ويعتمد في ذلك على إصدار أحكام

---

(١٢٧) عبدالملك بن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط٢ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، جـ١، ص٢٨٠.

(١٢٨) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ١، ص ٢٤٥.

عامـة يطلقها، فعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر على اختلاف طبيعتهما في نظم الشعر مقدمان عند الزبير على سائر شعراء النسيب في الحجاز وغيرهما لهما تبع.(١٢٩) ومع صواب هذا الحكم وفنيتـه، إلا أنـه يفتقـر إلى التعليل، فالزبير اكتفى بعبارات مقتضبة أرسلها كأحكام ولم يقدم تفسيرًا واحدًا يوضح فيه أسباب تقديمه لهما على غيرهما من شعراء النسيب.

وموقفه من تقديمهما على سائر شعراء النسيب، يختلف عن موقفه عند الموازنة بين شعرهما، فهو لم يأخذ بآراء السابقين عند الموازنة بينهما، بل احتكم إلى خصائص فنية بحتة، فحلل عناصر الأثر الأدبي، واحتكم فيه إلى مقاييس تمس أهم أركانه وعناصره.

لقد عرض الزبير لموقف عمه المصعب وغيره من الرواة الذين حكموا بتفوق عمر على جميل في الرائية والعينية، وقدموا جميلاً على عمر في اللامية، فخالف الزبير هذا الرأي وعلل لهذا بقوله: «من الناس من يفضلون قصيدة جميل اللامية على قصيدة عمر، وأنا لا أقول هذا، لأن قصيدة جميل مختلفـة غير مؤتلفـة، فيهـا طوالع النجد وخوالد المهد، وقصيدة عمر بن أبي ربيعة، ملساء المتون، مستوية الأبيات، آخذ بعضها بأذناب بعض. ولو أن جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لارتج عليه وعثر وكثر كلامه به.»(١٣٠)

ولقد وفّق الزبير في عرض صورة واضحة لأوجه الخلاف بين طريقتيهما في النظم. فقد عدل عن الموازنة بين قصيدة وقصيدة لكلا الشاعرين، إلى الموازنة بين طريقتيهما في شكل البناء الفني لموضوع القصيدة. فحكمه على تميز عمر وتفوقه على جميل قام على أساس نظرة شاملة للأثر الأدبي ككل، فهو لم يحتف بجزئية مع غياب أخرى. وإنما نظر إلى النص الأدبي ككل، فوحدة الغرض في النص غير كافية إذا لم يقابلها وحدة البناء الفني، من حيث ترتيب أبيات القصيدة وتماسكها. إن وحدة القصيدة تبدو أكثر بروزًا ووضوحًا في قصائد عمر ومطولاته، على حين يقل حظها من الظهور والتماسك في نماذج كثيرة من قصائد جميل. وعمـر وجميل كلاهما حقق للقصيدة وحدة في بنية القصيدة، إلا أن الوحدة العضوية في قصيدة عمر، تبدو أكثر ترابطًا وانسجامًا عنها في قصيدة جميل. فالصلة كما ذكر الزبير بين أجـزاء القصيدة عنـد عمر محكمة بعضها آخذ برقاب بعض، مع تتابع المعنى واستنفاد

(١٢٩) انظر: ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، حاشية رقم ٧١.

(١٣٠) انظر: ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ص ٢٣ والحاشيتان ٧٢، ٧٣.

الغرض. على عكس قصيدة جميل فإنه كلما طالت أبيات القصيدة عنده، قلّ تماسكها، واختل ترتيب أجزائها وأصبحت مجرد خطرات ولفتات شعورية متناثرة لا يربط بينها إلا طبيعة التجربة العاطفية العامة. بحيث يمكن إعادة ترتيبها على أكثر من وجه، أو إسقاط بعضها دون أن يلاحظ هذا النقص فيها.

ولم يقتصر الزبير على المفاضلة بين قصيدة وأخرى، بل فاضل بين نتاج شاعر وآخر معاصر له، عاشا في بيئة واحدة وخضعا لظروف متشابهة. فرواة قريش أجمعوا على تقديم عبدالله بن الزبعري وفضلوه على ضرار بن الخطاب، لكن الزبير خالفهم نظرتهم تلك. فقدم ضرارًا على ابن الزبعري لأنه «أقل سقطًا وأحسن صنعة.»

والحق مع الزبير فإلقاء نظرة على ما بقي من شعر ضرار وشعر ابن الزبعري تؤيد صواب هذه النظرة. فضرار كما سبقت الإشارة من قبل أقل سقطًا من جهة المعاني. ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ أهدر دم ابن الزبعري ولم يهدر دم ضرار. وأن عمر رضي الله عنه أعجب بشعره قبل إسلامه ودعا إلى التغني به. كما أعجب به المفضل الضبي وعقب على أبيات سمعها لضرار بقوله: «ما أجود هذه الأبيات وأفحلها.»[١٣١]

أما الصنعة في الشعر فقد مر تفسير ابن رشيق لها من قبل، وهي عنده تعني «فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض.»[١٣٢] لقد عبر الزبير عن إعجابه بصنعة ضرار، بعد أن استقصى كل ما صدر عن الشاعرين واعتمد في حكمه على أساس النظر فيما سقط إليه من شعرهما. وقد كان يفترض أن يحدد الزبير معنى «السقط» و«الصنعة» ويكشف عن طبيعتهما في شعر ضرار، ويحلل عناصرهما، ويقارنهما بنماذج من شعر ابن الزبعري، فيزيل بذلك ما يلف عبارتيه من غموض. ومع أن العبارتين قد أومأتا إلى إحساس عام أدركه الزبير، وميز فيه بين طبيعة شعر ضرار وابن الزبعري. إلا أنهما يدخلان ضمن العبارات الانطباعية الشائعة في كتب النقد. ومع أن هذا يعتبر قصورًا في المنهج النقدي، إلا أنه كان الاتجاه السائد في عصر الزبير. فالنقاد آنذاك لم يتجاوزوا الجانب النظري إلى التطبيق، ولم يعتمدوا أسلوب تحليل

---

(١٣١) انظر: ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ص ص ١٩، ٢٠، ٢١ والحواشي ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥.

(١٣٢) انظر: ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ص ٢٠، وحاشية ٦٦.

النصوص بل يكتفون بعبارات عامة تحمل من التعميم أكثر مما تحمل من التحليل والتفسير. لذا تظل مثل هذه العبارات محدودة الفائدة. لأنها تحتاج إلى من يزيل غموضها ويكشف أبعادها ومراميها.

**السرقات الشعرية**

يعتبر الزبير من أوائل المؤلفين الذين عنوا بالتأليف في موضوع السرقات. فكتابه «إغارة كثيّر على الشعراء» يأتي بعد كتابيْ ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧هـ وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٠هـ. ومع أن كتاب الزبير عن كثيّر قد ضاع فيما ضاع من تراثنا، إلا أن عنوانه يوحي بمحتواه ومضمونه، فهو عن سرقات كثيّر دون غيره من الشعراء. ومن خلال الأمثلة التي مرت في حديث السرقات في الصفحات الماضية، ظهر لنا من خلال شواهدها المنسوبة إلى الزبير، أن التهم الموجهة إلى كثيّر هي من نوع التهم التي وجِّهت إلى غيره من الشعراء. وهي أيضًا من النوع الشائع عند النقاد بدليل الإشارة إليها وإلى أمثالها في كتب النقد المؤلفة في عصر الزبير وبعده. فالإغارة التي عنون بها الزبير مؤلفه عن كثيّر مصطلح نقدي ربما سبق إليه ابن سلام: فقد قال به عند حديثه عن أحد المقلين من شعراء غطفان وهو قراد بن حنش.(١٣٣) مما يعني أن هذا المصطلح قد استقرت أصوله، وترسخت جذوره قبل مؤلف الزبير عن كثيّر. وبفقدان مؤلف الزبير عن كثيّر، فالباحث لا يستطيع أن يمضي في تقصي منهج الزبير في هذه القضية، لأن المادة المتوافرة في المرويات المنسوبة إلى الزبير مادة ناقصة. وقد تكون مشوهة ومبنية على افتراضات غير دقيقة. فالمرزباني رمى الزبير بالتحامل على كثيّر وجعله خصمًا له لا يقبل قوله فيه، وقد أرجع أسباب ذلك إلى هجاء كثير لولد عبدالله بن الزبير وانحراف الزبير عن أهل البيت. وقد أثبتت الشواهد المنسوبة إلى الزبيريين عكس ما ذهب إليه المرزباني. فقد أعجبوا بشعر كثيّر وقدموه على فحول شعراء العصر الأموي.(١٣٤)

واهتمام الزبير بالتأليف عن موضوع السرقات يمثل في واقع الأمر اتجاهًا كان شائعًا بين موضوعات النقد العربي. فمنذ القرن الثالث الهجري استأثر موضوع السرقات باهتمام

(١٣٣) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ٢، ص٧٣٣.

(١٣٤) انظر: ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ص ٣٤.

الـرواة، وهـو عندهم مظهر من مظاهر الإحاطة بالتراث. كما كان مظهرًا لإظهار المهارة والبراعة في الشعر، ودليلاً على الفطنة والقدرة التي يتمتع بها الراوي حين يكشف عن المعنى المسروق مهما تستر الشاعر وراء صيغ شعرية جديدة.

واهتم الزبير بقضايا نقدية أخرى قد لا ترتقي أهميتها إلى مستوى القضايا السابقة ومن ذلك حديثه عن العوامل البيئية وأثرها في الشعر والشعراء. ربط الزبير بين قلة الشعر عند القرشيين قبل الإسلام وأسبابها البيئية وعللها بظرفها الاجتماعي! فمكة التي عرفت بقلة الشعر في العصر الجاهلي، أصبح لها في عصر الأمويين شخصية قوية التأثير في الفن العربي. وقد تلون شعرها بلون حياتها الاجتماعية. ونال شعر عمر بن أبي ربيعة شهرة في الغزل لم ينلها شاعر قبله ولا بعده. وقد احتفى الزبير بشعره، فضمن مروياته قدرًا من الملاحظات النقدية التي قالها معاصرون لعمر مثل ابن أبي عتيق،(١٣٥) أو ممن أتوا بعد عصره كالمصعب الزبيري،(١٣٦) أو صدرت عن الزبير نفسه.(١٣٧) وكانت هذه الملاحظات النقدية على جانب كبير من الأهمية. فقد ركزت على النص، واعتمدت على شعر الشاعر؛ واشتلمت تقريبًا على كل أساسيات الذوق الأدبي في تقويم الشعر في تلك الفترة.

وحملت مروياته عن شعراء الحجاز الآخرين بعض النظرات الجزئية، فقد عد الزبير غموض المعنى عيبًا في الشعر، وناقش صحة «معنى» أو خطئه بالقياس إلى المنطق والواقع. كما نبـه على بعض المسائل اللغوية. وعد الخروج على القاعدة الصرفية مخالفًا للمقاييس اللغوية التي تعد شرطًا للجمال الفني والصحة الأدبية.(١٣٨)

والـزبـير في عرضه لهذه الأخطاء اقتصر على أبيات مفردة، وعقب عليها بعبارات أظهرت فساد معانيها وقصورها عن الوفاء بغرضها. وقد استمد معاييرها من القيم الأدبية الموروثة، ومن العرف اللغوي السائد بالإضافة إلى الذوق العام.

ونـظرًا لمعـاصرة الـزبـير (ت ٢٥٦هـ) لعلمـين من أعلام النقد في القرن الثالث الهجري، هما ابن سلام (ت ٢٣١هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) رأيتُ أن أختم هذا البحث

---

(١٣٥) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ص ١٠٨ - ١٠٩، ١١٩.

(١٣٦) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ص ١٢٠، ١٤٥.

(١٣٧) الأصفهاني، *الأغاني*، جـ١، ص ١١٨.

(١٣٨) انظر: ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ص ص ٣٦، ٣٧.

بالإشارة إلى أن أهم القضايا التي عرض لها الزبير في نظراته النقدية، سبق أن عرض لها ابن سلام من قبل.

والزبير يلتقي مع ابن سلام وابن قتيبة فهم جميعًا اهتموا بتراجم الشعراء وأخبارهم، وعرضوا لبعض القضايا النقدية عرضًا موجزًا أثناء حديثهم عن الشعراء. وإذا كان ابن سلام قد أخذ بالمنهج التاريخي الذي يقسم الشعراء حسب أزمانهم إلى جاهليين وإسلاميين، فإن ابن قتيبة لم يهتم كثيرًا بالناحية الزمنية، فلم يصنع صنيع ابن سلام ويقسم الشعراء إلى طبقات. أما الزبير فقد أولى عناية أكبر بشعراء أهل الحجاز دون غيرهم وكان حريصًا على المفاضلة بين شعراء المذهب الواحد.

وإذا كان مقياس ابن سلام في نقد الشعر يميل إلى منهج اللغويين الذين يفضلون القديم والقدماء، فإن مقياس ابن قتيبة يختلف كل الاختلاف عن مقياس اللغويين فهو يقوم على أساس النظر في جودة العمل الأدبي بصرف النظر عن قدمه أو حداثته.(١٣٩)

وفيما يتعلق بانتحال الشعر فإن الزبير يتفق في النظرة مع ابن سلام. فكلاهما يرجع انتحال الشعر في العصر الجاهلي إلى العصبية القبلية، وفي عصر الأمويين إلى عبث أهل الأهواء السياسية. كما يلتقي معه في حديثه عن السرقات ويخالفه عند المفاضلة بين شاعر وآخر. فابن سلام يرى في كثرة الشعر سببًا كافيًا لتقديم شاعر على آخر على حين يلتقي الزبير مع ابن قتيبة فالمحك عندهما في تقديم شاعر على آخر هو جودة الشعر. فقد خالف الزبير رواة قريش الذين قدموا ابن الزبعري على ضرار بن الخطاب، وحجتهم في ذلك أن ابن الزبعري كان أشعر القرشيين في الجاهلية. فخالفهم الزبير وقدم ضرارًا لأنه أقل سقطًا وأحسن صنعة. فقد جعل الزبير من جودة الشعر مقياسًا للحكم على الشاعر دون اعتبار للقدم وهذا مقياس أخذ به ابن قتيبة الذي لم «يستحسن باستحسان غيره.» وابن سلام أغفل ذكر عمر بن أبي ربيعة ولم يصنفه ضمن طبقات فحول الشعراء الإسلاميين. وجعل كثيّرًا في الطبقة الثانية من فحول الإسلام، وجميلاً في الطبقة السادسة مع ابن قيس الرقيات والأحوص ونصيب. وقال عن كثيّر: «ولكثيّر في التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه (وعلى أصحاب النسيب جميعًا) في النسيب، وله في فنون الشعر ما ليس لجميل.»(١٤٠)

(١٣٩) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، جـ١، ص ص ٦٢، ٦٣.

(١٤٠) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، جـ٢، ص ٥٤٥.

والجزء الأخير من عبارة ابن سلام يكشف عن منهجه في النقد، ويوحي بأن تقديمه لكثيّر على جميل حدث بسبب كثرة شعر كثيّر وتعدد أغراضه.

أما الزبير فهو يلتقي مع ابن سلام على تقديم جميل على أصحاب النسيب جميعًا إلا أنه يخالفه ويقدم عمر على جميل ويحتكم إلى معيار فني بحت، لمسه في اختلاف طريقة نظمهما لقصائدهما. فقصيدة عمر كما عبر الزبير من قبل «ملساء المتون، مستوية الأبيات، آخذ بعضها بأذناب بعض، ولو أن جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لارتج عليه وعثر كلامه به.» فطريقة الزبير عند تقويمه لشعر جميل وعمر قائمة على أساس دراسة النصوص والتمييز بين الأساليب. ولم أقف على شيء من ذلك عند ابن سلام أو ابن قتيبة، فهما وإن عرضا لبعض المسائل الأدبية والمقاييس العامة، إلا أنهما كانا يميلان إلى التاريخ الأدبي أكثر منهما إلى النقد القائم على الاستقصاء وتحليل النصوص. وميزة نظرات الزبير أنها استطاعت أن تفلت من تأثير نظرات الأقدمين وأحكامهم على بعض الشعراء.

لقد أسهم الزبير في تدعيم حركة النقد في عصره. وهو وإن كان مسبوقًا بالكثير مما أسهم به، إلا أنه استطاع أن يسلط الضوء على شعر مجموعة من الشعراء، وذلك بفضل إحاطته بتراث العرب وعلمه بأخبار الناس وأشعارهم، مع ما كان يتمتع به من حس أدبي وذوق أصيل. كل ذلك كان له أثره وقيمته لدى من أتوا بعده. وقد ظهر أثر ذلك في الكتب المؤلفة بعد عصره حيث ظلت رواياته بما فيها من أخبار وأشعار، وأحكام وآراء معينًا لا ينضب، استفاد منه المؤلفون على اختلاف توجهاتهم وأزمانهم.

# The Critical Trend in al-Zubair b. Bakkar's Narratives (AH 172-256)

**Abdullah Sulayman Al-Jarboa**
*Associate Professor, Arabic Department, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia*

**Abstract.** This research aims to study the critical trend in al-Zubair b. Bakkar's narratives. This topic didn't receive attention from researchers who appreciated al-Zubair's scholarly position. The researcher tries to bring into view this unknown aspect of al-Zubair's literary works. Although this critical trend is not so public as his many narrations, it does exist and indicates that al-Zubiar's mentality has the benefit of critical senses.

The research discussed many of al-Zubair's critical opinions. Some of these were considered general critical issues related to the narrated material, in which al-Zubair's role was just addressing several of the critical issues which motivated interests of the critics of an earlierera. The others of that opinion are self-criticisms which originated from al-Zubair, and they represent his own technical point of view.

An example of the first category is his concern with the poets' critique of their contemporary or ancient peers and an example of the second category is his sayings that express his critical opinions about many of the issues that engaged the critics of his era. Most important of them are:

- Textual documentation.
- Comparison between two poets or two collections of poetry.
- Poetical theft.

In addition the researcher also discussed other critical issues such as his ideas about environmental affects on poetry.